فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٣

الوصف

يشترك فى وضع هذه المجموعة
لجنة من أدباء الأقطار العربية

الطبعة الثالثة



دار المعارف

الوصف

الناشر : دار المعارف ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع

تمهيد

منذ قامت العبقرية في الدنيا سعى الفنان إلى الطبيعة في حب وإعجاب ونشوة وذهول، فسكر بجمالها، وانتشى بمحاسنها، واتخذها مثلاً يحتذيه، يصوره ويقلده بالأصوات أو بالألوان، فكان الرسام والنحات والموسيقى والشاعر. وكل منهم عمد إلى الأرض والسماء، والحيوان والنبات، والإنسان والماء، يرسمها بخياله ويصفها بفنه، فخلف في متاحف الفن صورة لإبداعه ومثلاً من خلقه.

والشاعر العربي فنان مبدع سار في ركب هؤلاء العباقرة الإنسانيين فرسم ما رأى وصوّر ما شاهد ووصف ما أحس، فترك في المتحف الأدبيّ صفحات خالدة على اختلاف العصور، تقف لمتاحف الرسامين والنحاتين والمصوّرين في إبداع الخطوط وقوة التقليد والمحاكاة، ونقل الصوت والحركة والنشاط، ورسم الحديث واللون والظل؛ سواء أكان في رسم الطبيعة أم في تصوير الإنسان والحيوان، أم في وصف الأخلاق والطباع والعادات. فلعله فهم الأدب على أنه وصف كله، ولعله سار فيه على أنه وصف حسي مادى، في مدحه للرجال، أو هجائه للخصوم، أو فخره بقوته وشجاعته، أو رثائه للأحبة الذين يفقدهم، أوفي نسيبه وتشبيبه بالمرأة والجمال.

فلما عرض النقاد القدماء لهذا الشعر قسموه إلى أبواب فيها المديح والفخر والهجاء والرثاء والنسيب والوصف. ورأوا أن الوصف يغلب عليها جميعاً ويشملها بردائه حتى قال ابن رشيق: «إنّ الشعر إلاّ أقله راجع إلى باب الوصف». وقد جعلوا الأبواب الخمسة للإنسان تصف أخلاقه وطباعه ومزاياه

ومحاسنه وخلقته وتكوينه ، وخصوا الوصف بالحيوان والنبات والأرض والماء والنار والسماء ، وأدخلوا الخمر فيها على أنها بعض هذه الأجزاء .

وفسروا الوصف فى معاجمهم بأنه الكشف والإظهار ، فإذا قالوا : وصف الثوب الجسم فقد أرادوا أنه نم عليه ولم يستره ، فهو فى عرفهم ذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات ، وقد نظر النقاد المحدثون إلى ما قيل فى الطبيعة الميتة وفى الطبيعة المتحركة ، فرأوا أن الشعر يكشف عنها ويرسم حالها وهيئتها ، لذلك جمعوا ما كان فى الوصف ، فسموه حيناً بشعر الطبيعة وحيناً بشعر الوصف ، وألفوا فيه بعضاً من الفصول والكتب .

وقد خص القدماء أبواب الوصف بعنايتهم فعرضوها فى مختاراتهم وتحدثوا عما فيها من بلاغة وفصاحة ، وبعض هذه المؤلفات مطبوع ، كتشبيهات ابن أبى عون وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ونهاية الأرب للنويرى ، وبعضها مخطوط كالمحب والمحبوب والمشموم والمشروب للسرى الرفاء ، والتحف والهدايا للخالديين ، وقد رجعنا إلى هذا كله ، واعتمدنا عليه ولا سبيل إلى ذكر الصفحات والمراجع القديمة والحديثة عند كل استشهاد فذلك يطول ، وفيه الشعر والنثر ، فوقفنا عند الشعر فحسب لأنه ألزم بالبحث .

ونحن حين نجمع هذه الألواح والصور بعضاً إلى بعض ونقرب بينها نستطيع أن نتبين من خلالها صورة للأرض التى عاش عليها العرب من وهاد وتلول ، وصحارى ورياض ، وأنهار وبرك ، وزهر ونور ، وشجر وثمر ، ورسماً للحيوان الذى كان يدب بينهم ، وللقصور التى كانوا يشيدونها ، والطلول التى كانوا يغادرونها ، ولمجالس الشراب التى كانوا يعقدونها ، والحروب التى كانوا يخوضونها ؛ ونلمح الوجوه والملابس لمختلف الطبقات والأمم التى اختلطوا بها ، وما كانوا يستحبون منها ، وما كان يدور بينهم من حديث فيها ، وما كانوا يفضلون من جو وبيئة ، وما ينظرون من الأفلاك والسماء والسحاب والمطر ، فكأننا نتعرف إلى حياتهم

الاجتماعية كما صورها شعراؤهم على اختلاف العصور والأقطار ، وقد انعكست فى أوصافهم نفسياتهم وحالاتهم من فرح وحزن . وحب وكره ، ورضا وحقد ، وحرب وسلم .

فقد كانوا يستلهمون من طبيعتهم وزمانهم أوصاف ما تقع عليه أعينهم وتجرى فيه أخيلتهم ، فى البدو والحضر ، فى الحجاز أو فى الشام . فى العراق أو فى مصر والأندلس ، بل كانوا يختلفون فى ذلك حين تقسو الطبيعة أو تلين ، وتسخو الحياة أو تبخل . فالراعى غير الأمير . والمقاتل غير اللاهى ، وساكن الصحراء يختلف عن سكان الأنهار ؛ والحياة فى العصر الجاهلى تختلف عما آلت إليه فى العصر العباسى أو الأندلسى . فإذا كانت قد تشابهت صور الوصف فى هذه العصور فمردها إلى الحنين أو التقليد . أو الضعف وقعود العبقرية .

وأغلب الظن أن العربى تأثر بالأمم قبل الإسلام حين اتصل بالفرس أو بالروم قبيل القرن السادس للميلاد ، فقد عاشت قبائلهم فى كنف الغساسنة والمناذرة ، وسافر شعراؤهم إلى هؤلاء وهؤلاء ، فألفوا الغناء الفارسى أو النشيد الرومى ، وانتقل ذلك إلى أقوالهم وأحاديثهم وشعرهم من غير أن تفصح الكتب عن هذا الأثر ، أو يشير التاريخ إلى هذا التفاعل .

فلما انتقل العباسى إلى العراق وتغلغلت الحضارة الفارسية فى حياته وانتقلت إلى شعره ذكر النقاد هذا الأثر وبالغوا فيه ، لأنهم كانوا يشيرون إلى كل مصدر ، ويبحثون عن كل ينبوع ، ويتحدثون عن فضل الأعاجم ، فرأوا أنّ الوصف طبع بطابع الحضارة الجديدة ، وألمّ بتقاليد الفرس .

ولما كان القرن الرابع للهجرة تأثر العباسيون بهذه الصور ودرجوا على حبها ومعالجتها ، فحلق الشعراء فى الوصف وبلغوا ذروة الفن ، وطرقوا الموضوعات فى عمق وشمول ، ورسموا الحياة فى كثير من الإبداع والدقة .

وحين عاش العربى فى الأندلس ظل قروناً يقلد المشرق ، حتى كان القرن

الخامس للهجرة ، فحاول أن يجدد وأن يخرج عن نطاق الأدب القديم ، فكانت له صور موفقة وأساليب جديدة ، تقع حيناً من القرن الرابع موقع الشبه والمجاورة .

ولما أطلّ العصر الحاضر غزت الحضارة ديار مصر ، واتصلت الشام بأسباب الغرب فتحرك الوصف نحو الطرافة والجدة ، وبلغ مبلغاً من التوفيق خلال السنين الأخيرة فى الشام ومصر ، يبعث الأمل فى أدب المستقبل .

وسنعرض فى الصفحات التالية فصول هذا التطور ، ونبسط بعض صور الطبيعة الميتة والمتحركة ، فنرى كيف نظر العربى على اختلاف الزمن إلى موضوعات الوصف من حيوان وأرض وسماء وخمر وسلاح وحرب ، فى العصر الجاهلى ثم الأموى ، فالعباسى والأندلسى ، إلى أن نبلغ المعاصرين فنلم فى إيجاز بشعرهم فى الوصف ، نورد الأمثلة حيناً ونختصرها حيناً ، ونحكم عليها أو لها ، وما هى إلا محاولة فى هذا الباب نرجو أن تقع موقع التوفيق ، لسعة البحث وتعدد مناحيه ، والله من وراء القصد .

سامى الدهان

الفصل الأول

العصر الجاهلى

وصف الحيوان

الناقة — الفرس — البقرة الوحشية — الثور الوحشى —
الظليم — العقاب — الذئب

عاش العربى فى جزيرة واسعة تختلف عليها الرمال والأنواء والرياح ، وتشتد عليها الطبيعة وتقسو ، فكان ينتقل فى سبيل العيش ، ويضرب فى الأرض وراء اللقمة ،فيجتاز مسافات كبيرة ويخترق صحارى شاسعة كأنه فى ركب الحياة على سفينة تتقاذفه تعلو به وتهبط ، فيلقى مصاعبها ومتاعبها إلى أن يرسو به القدر عند مرفأ أمين يحط فيه رحاله ويلجأ إليه حيناً من زمن .

وكان سبيله إلى هذا التنقل حيوان يقتسم معه هذا العيش الشديد يقطع عليه المسافة فيرافقه ويعايشه ، ويقضى معه أكثر حياته فيألفه ويحبه ، ويرى فيه أعظم صديق وأنبل رفيق ، يتحمل معه التعب والعناء والسير والسرى ، وقد وجد ضالته هذه فى الناقة والفرس . فالناقة تنيخ بإناخته وتنهض إلى غايته ، تسير كما يريد فى إرقال أو وخد ، تؤنس وحشته وتخفف وحدته ، فيغنيها وينشدها إذا أتيح له أن يغنى أو ينشد ،فالحيوان يتأثر بالموسيقا والحداء .

والفرس صديق العربى فى عيشه كذلك فى الحرب والسلم ، فى الحياة الجادة والهازلة ،حين يحارب الإنسان أو يصطاد الحيوان ، وهو وفى له يصحبه فى السراء

والضراء وحين البأس ، فهو قوته وسلاحه ، وموضع مجده وعزته وفخاره .

لذلك أحب العربى هذا الحيوان ورأى فيه نجدة وملاذاً ، فهو منبع ثروته ومحل إكباره ، يذكره كما يذكر الغزلون المرأة . يحبه و يستوحى منه . وسنعرض لهذه الصور التى صنعها الشعراء فى الحيوان الأنيس ، ونجعلها بعضاً إلى بعض لنتبين الصورة التى رسمتها أخيلتهم ومشاعرهم لهذا الرفيق المخلص والصديق الوفى ، كما نعرض لوصف الحيوان المستوحش بعده ، وهم يطاردونه و يصطادونه ، فيرون فيه الشريد الطريد . وسنبدأ بالأنيس قبل كل شىء كالناقة والفرس .

الناقة

أحب الجاهلى الناقة لأنها تغذيه بلبنها ، وتكسوه من وبرها ، وتطعمه من لحمها ، فهى عنده غذاء وكساء ، وهى حياته فى هذه الصحراء . وقد تعاقب على وصفها كثير من الشعراء ، سنتخذ أمثلتهم مما بسطته كتب المحدثين (١) ، لنرى أيهم أجاد فى رسمها ووفق فى وصفها ، وفيهم بشامة بن الغدير ، وطرفة ، والمسيب ، وزهير ، والمثقب .

أما طرفة بن العبد ، فقد عاش فى القرن السادس للميلاد ، وقضى شابا وشقى كثيراً ، ولكنه كان سريع الخاطر حاد الذهن ، فانصرف أول الأمر إلى اللهو والأنس والشرب واللذة ، ولذلك كثر لوامه ، وتباعد عنه إخوانه ، فعاش حزيناً يهيم على وجهه ، يشتغل بالغزو أو يأوى إلى مغاور الجبال ، لا أنيس له إلا هذه الناقة الأمينة الضامرة ، فكان يطوف عليها أطراف الجزيرة ، لذلك طالت صحبته لها ، وكثر نظره إليها ، وأبعد فى وصفها حتى أبدع وفاق أقرانه . فأكسب

---

(١) أخص بالذكر منها كتاب « الوصف فى العصر الجاهلى » — لعبد العظيم القناوى ، فهو جامع مانع فى هذا الباب .

صورتها نشاطاً وحركة ، وكساها بالظلال ،ورسم جسمها فى خطوط كبيرة على دقة واستيعاب ، قال فى معلقته :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره بعوجاء مرقال تروح وتغتدى (١)
أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد (٢)
لهـا فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد (٣)
وطى محـال كالحنى خلوفـه وأجرنة لزت بدأى منضد (٤)
كقنطرة الرومى أقسم ربهـا لتـكتنفن حتى تشاد بقرمد (٥)
وأتلعُ نهاضٌ إذا صَعدتْ بـه كسكان بوصى بدجلة مصْعد (٦)
وجمجمة مثـلُ العـلاة كأنما وَعى الملتقى منها إلى حرْف مبرد (٧)
وعينـان كالمـاويتين استكنتـا بكهفى حجاجىْ صخرة قلت مورْد (٨)
وخـدٌ كقرطاس الشآمى ومشفرٌ كسبت اليمانى قده لم يحـرد (٩)

---

(١) الاحتضار : الحضور — العوجاء : الضامرة التى لحق بطنها بظهرها — الأرقال : السرعة — تروح وتغتدى : أى تصل آخر النهار بأوله فى السير .

(٢) أمون : يؤمن عثارها — الإران : تابوت كانوا يحملون فيه الموتى — نسأتها : زجرتها والمنسأة هى العصا — اللاحب : الطريق البين — البرجد : كساء مخطط .

(٣) النحض : اللحم — المنيف : القصر المشرف — ممدد أو ممرد : أملس .

(٤) طى محال : أى محال مطوية متراصفة دان بعضها من بعض — المحال : فقار الظهر واحدته محالة — الحنى : ج حنية وهى القوس — الخلوف : مآخير الأضلاع — أجرنة : ج جران وهو باطن الحلقوم — لزت : ألصقت — الدأى : ج دأية وهى فقار العنق — المنضد : الملصق بعضه ببعض

(٥) قنطرة الرومى : شبه الناقة بها لانتفاج جوفها وشدة خلقها — الأكناف : النواحى — تشاد : ترفع — القرمد : الآجر .

(٦) أتلع : العنق الطويل — نهاض : مبالغة فى النهوض — السكان : دفة السفينة — بوصى سفينة .

(٧) العلاة : السندان — وعى : جمع — الملتقى : حيث تلتقى قبائل الرأس .

(٨) الماوية : المرآة — الكهف : الغار — حجاج : عظم مشرف على العين ينبت عليه الحاجب قلت : نقرة فى الحجر تمسك الماء — المورد : الماء .

(٩) السبت : جلود البقر المدبوغة — لم يحرد : لم يمل فهى شابة لم تمل مشافرها — القد : ما قد من الجلد .

فالناقة ضامرة نجيبة سريعة مرقال ، وذنبها ذيال كثير الوبر يشبه فى ذلك جناحى نسر قديم ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، وفقرات متداخلة تكوّن مع الأضلاع قسياً متراصة . وهى فى صلابتها كقنطرة الرومى بناها الصناع بالآجر المتين . إنها ضخمة الرأس طويلة العنق قوية ، ولها خد كالقرطاس الشامى أبيض لا شعر فيه ، ومشفر كالجلد المدبوغ لم يميل فى تقطيعه ، وعيناها كالمرآتين استكنتا فى كهف جبلى .

هذا إذا وقفنا عند ظاهر جسمها وأعضائها ، ولم نتجاوز إلى حذرها وسرعة سيرها ونشاطها ، وطاعتها ولين انقيادها ، فالشاعر شبه كل عضو من أعضائها بشىء وقع عليه حسه كالنسر ومشيد القصور ، والقسى والقنطرة والقرطاس الشامى والجلد المدبوغ والمرآة . وهذه كلها فى متناول خياله أو فى ملك نظره يمد يده إليها حين يريد . وقد بسطها بسطاً ماديا حسيا ، فتصور أجزاءها شبيهة بهذه الأشياء .

وقد رأينا الألفاظ عند الشاعر غريبة جداً ، طواها الزمان وسكت الشعراء عن ترديدها ، وقد كانت مألوفة لعهده فتصرف فيها تصرف المعتز الفخور ، وطرق بها هذه المعانى النادرة ، ورسم أجزاء من الحيوان لم يكن بد من وصفها بهذه المفردات ، ولعله عبد الطريق لغيره من الشعراء فى وصف الناقة والإلمام بهذه التشبيهات المادية ، فأوغلوا فى التصوير وساروا على سننه ، وهم كثير لا يحصون ، سنعرض لبعضهم هنا .

أما بشامة بن الغدير ، فقد قال إن أذن الناقة ضخمة تتبلل بالعرق ، ولها صدر عريض كأنه الطريق الواسعة ، وهى شديدة الوطء كالسيد القوى العزيز يطأ الذليل فى جبروت ، وأنها أسرع من نعامة حين يطاردها الظليم ، وهى فى ضخامتها تشبه السفينة تمخر العباب وتجرى فى اليم لا يدركها أين ولا يلحقها ونى ، مكتنزة اللحم ، قوية الفخذين، متسعة الصدر ، سريعة السير ، تجرى كأنها تخوض فى عباب متلاطم :

إذا أقبلتْ قلتَ : مذعورة أطاع لها الريح قلعاً جفولا [١]
وإن أدبرتْ قلتَ : مشحونة من الرمد تلحق هيقاً ذمولا [٢]
وإن أعـرضتْ راء فيهـا البصـ ـيرُ ما لا يكلفه أن يفيلا [٣]

فإذا أقبلتْ عليك حسبتها قد تملكها الذعر وركبها الفزع لشدة نشاطها ، وإذا أدبرتْ حسبتها سفينة ، وإذا تحولتْ عنكَ عرفتَ منها ما لا يخطىء معه ظن ولا يخيب فيه تقدير .

والمثقب العبدىّ ، قال فيها كقول زميليه ، فوصفها بوفرة اللحم وكثرة الشحم وسمنة العنق ، سنامها ضخم يشبه قبة القصر العظيم ، ممتلئة الوجنتين ، ثخينة الجلد وأعضاؤها كأعضاء الجمل ، تتسامى بعنقها إذا سارت وكاهلها سامق كالحصن المنيع . وهى كذلك سريعة الجرى جميلة فى إرقالها ووخدها ، تصل الليل بالنهار ، ولا تحوج حاديها إلى زجر أو نغم ، تشبه فى جمالها الثور الوحشى

ولا يصف المثقب أعضاءها كلها ، ولا يبلغ إلى إحصاء كل ما فيها ، وإنما يذكر خدمتها له وقيامها بمهمتها فى صبر وجلد ويقظة ، وهذا كل ما يحتاج إليه السارى والراكب .

وزهير بن أبى سلمى ، يصفها ضخمة الوجنات وثيقة الأعضاء تشبه الجمل كذلك فى خلقها وانبساط هيكلها ، نشيطة سريعة ، تطيع فلا تحتاج معها إلى زجر أو ضرب أو تشويق ، تسير الليل والنهار فى صبر وجلد ، وتعرق حين تغذّ فى مسافات شاسعة واسعة ، وذنبها ريان غليظ ضخم تضرب به ساقيها ، تجرى فى سرعة كالريح لتبلغ بك إلى الهدف وتصل إلى يم النجاة ، تشبه البقرة الخنساء فى جمالها وتكوينها ، كريمة عزيزة جوابة الآفاق ، ذكية الفؤاد ، شديدة الذعر مخافة

---

(١) أطاع لها : هيأ لها — جفولا : مسرعاً .

(٢) مشحونة : مملوءة — الرمد : ج أرمد ورمداء وهى النعامة — الهيق : ذكر النعام — ذمولا : مسرعاً .

(٣) راء : رأى — يفيلا : يخطىء .

أن ينهال عليها السوط ، وزهير فى وصفه لا يرسم الأعضاء كلها ولا يفصل القول فيها ، وإنما يتحدث عن حاجته إليها فى السرعة والصبر وعظيم الخدمة .

والمسيب بن علس ، شارك فى وصف الناقة ، ورسمها ضامرة الخصر واسعة الخطو ، حديدة البصر ، شديدة الإذعان ، ظهرها كقنطرة ملساء ، مكتنزة اللحم ،وسنامها ضخم متعال يشبه أكمة الرمل، وعنقها مستطيل كالشراع ، قوية الصدر نشيطة تندفع نحو العدو كأنها تقاذف كرة فى أرض منخفضة سهلة ، أو كأنها فى سرعتها امرأة تريد أن تنسج ثوبها وأن تتمه قبل أن يقع المساء وتطوى شراع النهار . وهذه الصورة يعبر عنها فى أسلوب جميل بين يقول :

مرحتْ يداها للنجاء كأنها تكرو بكفى لاعب فى صاع [١]

فعل السريعة بادرت جدّادها قبل المساء تهم بالإسراع [٢]

فدلنا بذلك على ما كان للاعب فى أرض العرب وما للمرأة من عمل فى بيتها حين تختلس ساعات النهار فى نسج الثوب قبل أن يهبط الظلام فيلف الدنيا برداثه . وهو لطيف حين يطير بتصويره إلى قبيلته فيرسمها لاعبة لاهية أو يصور النساء فى عملهن اليومى .

وهؤلاء الشعراء يتشابهون فى وصف نياقهم ، فيرسمونها بالضخامة والقوة وسرعة الجرى وشدة الطاعة ويستعملون فى ذلك الصور الحسية المادية ، ويشبهون كل عضو بصورة عرفوها وألفوها فى حياتهم الاجتماعية . يشبهونها فى قوتها بالإبل وهذه معروفة بالسرعة والقوة ، ويرون فيها سبيلاً للنجاة من المفاوز والبوادى ، وسفينة فى عباب الصحراء يركبونها إلى غاياتهم وأهدافهم ، فلا تتوانى ولا تتمهل ولا يدركها تعب أو إرهاق ، على أنها تشاركهم الشقاء فى العيش

(١) مرحت : نشطت — النجاء : الإسراع — تكرو : تلعب — الصاع : المنخفض من الأرض .

(٢) الجدادة : ما بقى من خيوط الثوب .

والضنك فى الحياة ، وتقاسمهم الآلام والآمال ، فتحس برغباتهم وتطيع حاجاتهم ، تسرع من غير وقوف ، وتسير من غير زجر ، وتجرى من غير حداء أو غناء .

وقد سبقهم طرفة فوصف ما وصفوا ، وأضاف إلى أوصافهم أعضاء الناقة ، ولكنه أوغل فى غرابة اللفظ وأسر المفردات ، فزاد على زملائه فى خشونة التعبير ، وسبقهم فى دقة التصوير .

الفرس

وإذا كانت النياق وسيلة النقل — كما نقول اليوم — فالخيل كانت للركوب فى الزينة والصيد والحرب ، تشارك الفرسان فى الطعن والضرب واللهو والصيد ، وقد أقبل عليها شعراؤنا فوصفوها بجمالها وسرعتها ، ولمشاركتها فى المواقع والمعارك والمآسى والملاحم والأفراح والأتراح ؛ فهى للترف كما هى للحاجة . وقد جاء فى كتب الأدب أن العرب كانت ترتبط الخيل فى الجاهلية والإسلام معرّفة بفضلها وما جعل الله تعالى فيها من العز والفضل ، فتكرمها وتؤثرها على الأهلين والولد ، وتفخر بذلك فى الشعر والنثر .

وقد نقل فى هذه الكتب أن داود نبى الله أحبّ الخيل حبا شديداً ، فلم يكن يسمع بفرس يذكر بعرق أو عتق أو حسن أو جرى إلاّ بعث إليه حتى جمع ألف فرس ؛ وجاء فيها أن سليمان أحبها كذلك . ونسجت كتب الأدب حول الخيل صفحات عديدة تشرح فضلها ، وما قال فيها القدماء من شعر وما حام حولها من أساطير وقصص ، وما اتخذوه لها من أسماء خاصة وأنساب معينة تجدها فى «أنساب الخيل» لابن الكلبي وفى «الحيوان» للجاحظ ، وفى «حلية الفرسان وشعار الشجعان» لابن هذيل وغيرها ، يطول بنا المقام إن عرضنا ما تقول فيها . فحبّ الخيل قديم قبل الإسلام وبعده ، وذلك لتعلق العرب بهذا الحيوان وطول صحبتهم له وشدّة أنسهم به . فلا غرابة إن نشأ ديوان ضخم فى رسمه منذ

الجاهلية ، فقد وصف الفرس كثير ، وفيهم امرؤ القيس ، وعنترة ، والمرقش الأصغر . . .

أما امرؤ القيس ، فقد وصفها فى مواقع عدة من شعره فى المعلقة وغيرها ، فرسمها فى ضخامتها وقوتها ، وصور ظهرها وخاصرتيها وساقيها وذنبها ، واكتفى بالخطوط العريضة الكبيرة كما فعل طرفة بناقته ، ولكنه لم يشبه أجزاءها بالقصور والدور والسفن والقناطر ، وإنما عمد إلى الظبي والنعامة والثعلب والذئب والصخر والمطر والجبل ، وتطرق فى وصفه إلى الأطفال والبنات والنساء فشبه أعضاءها بشيء من هذا كله ، أو بما يقومون به من ألعاب وحركات ، واستعان بالتشبيهات على عرض صورة للمسافة والحيز واللون لعله يقربنا من أوصاف فرسه ، ونفخ فى الصورة بروح الحركة والنشاط بما يستلزمه الصيد والطراد فقال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل (١)
مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر حطه السيل من عل (٢)
كميت يزل اللبد عن حال متنه ... كما زلت الصفواء بالمتنزل (٣)
على الذبل جياش كأن اهتزامه ... إذا جاش فيه حميه غلى مرجل (٤)
مسح إذا ما السابحات على الونى ... أثرن غباراً بالكديد المركل (٥)

---

(١) أغتدى : أذهب باكراً — الوكنات : ج وكنة وهى عش الطائر وبيته — المنجرد : قليل الشعر — قيد الأوابد : يقيدها بسرعة ركضه — هيكل : عظيم الجرم .

(٢) كر فرسه على عدوه : عطفه — مفر : مبالغة فى الرجوع — الجلمود : الصلب من الصخر

(٣) الكميت : ما لونه بين السواد والحمرة — الحال : مقعد الفارس من ظهر الفرس — الصفواء : الصخرة الملساء — المتنزل : صفة لمحذوف تقديره المطر .

(٤) الذبل : الضمور والضعف — جياش : مبالغة من الجيشان وهو الهياج والغليان — الاهتزام : صوت الفرس فى سرعة السير .

(٥) مسح : مبالغة من السح وهو الصب والدفع — السابح من الخيل : الذى يمد يديه فى عدوه — الونى : التعب — الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة — المركل : الذى وطئته الأرجل .

يزل الغلام الخفّ عن صهواته ويلوى بأثواب العنيف المثقل (١)
درير كخذروف الوليـد أمرهُ تتابع كفيه بخيط موصّل (٢)
له أيطلا ظبى وساقا نعامــة وإرخاء سرحان وتقريب تتفل (٣)
ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل (٤)
كأن على المتنين منه إذا انتحى مداكَ عروس أو صلاية حنظل (٥)

فهو يغدو باكراً قبل أن تهجر الطيور وكناتها، فيعتلى صهوة جواد قد انحسر شعره لشدة سمنه، ماض لا يقف، سريع يسبق الوحوش الأوابد فيقيدها بسرعته وما تستطيع منه فكاكا، وهو يكر فلا يلحق ويفرّ فلا يسبق، يقبل ويدبر شديد الحركة عظيم القوة، يجرى كالحجر الكبير حين يسقطه السيل من أعالى الجبال، ضخم فى جثته، مكتنز اللحم حتى ليسقط اللبد عن ظهره سقوط الماء على الصخرة الملساء، يهدر فى ركضه كما يجيش المرجل بالماء. وإذا كانت الجياد تثير الغبار لكلالها فهو ينصب انصباباً، فلا يثبت الغلام الخفيف على صهواته، ويسرع كالخذروف فى يد الصبى.

ولهذا الفرس خاصرتا ظبى وساقا نعامة، يسير كما يسير الذئب، ويجرى كالثعلب الوليد، وهو على ضموره عظيم الأضلاع إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء بين قائمتيه بذنبه الطويل، وإذا نظرت إليه بغير سرج وجدته يلتمع

(١) الصهوات : ج صهوة ، وهى مقعد الفارس من ظهر الفرس — العنيف : ضد الرفيق .

(٢) درير : صفة للفرس الذى يدر الجرى أى يديمه ويتابعه — الخذروف : آلة مستديرة من جلد أو خشب يديرها الصبيان بخيط أدخل فى ثقبها .

(٣) الأيطل : الخاصرة — إرخاء : ضرب من عدو الذئب — السرحان : الذئب — تقريب : ضرب من العدو كذلك — تتفل : ولد الثعلب .

(٤) ضليع : عظيم الأضلاع — استدبرته : نظرت إليه من مؤخره — الفرج : الفضاء بين اليدين والرجلين — ضاف : طويل — أعزل : يميل عظم ذنبه إلى أحد الجانبين .

(٥) المتنان : ما على يمين الفقار وشماله — انتحى : اعتمد — المداك : الحجر الذى يسحق به الطيب — الصلاية : الحجر الأملس .

جلده كما تلمع الصلاية والمداك فى بريق ولمعان .

والشاعر فى وصفه الفرس يختار له الضخامة والقوة والصلابة والسرعة، ويختار لوصف ذلك صوراً من الحياة التى يراها والأدوات التى يصبح عليها ويمسى ، فهو كالصخرة المتحدرة مع السيل، وهو فى صوته كالمرجل حين يغلى ، وساقاه كالنعامة، يشبهه حيناً بالثعلب وحيناً بالذئب . وما نرى جاهلياً يستطيع أن يصطاد ألواناً أكثر من هذه ، أو يجمع تشبيهات أوسع ، فقد أوفى على الغاية فى رسم القوة والسرعة . ولعله بذلك نحت تمثالاً للفرس كأجمل ما يصنع المثال فى خطوطه العريضة . ولكنه لم يرسم العينين والوجه والغرة والعروق ، وإنما وصف الحركة والضجة والصوت والنشاط ، وذكر الخدمة التى يؤديها لصاحبه فى سرعته وبلوغ غايته . ولعل هذا كل ما يطلب امرؤ القيس من فرسه، يفخر به ويعتز بامتلاكه .

وعنترة بن شداد العبسى ، افتخر بفرسه كذلك ووصفه بأنه ضخم الجسم عظيم الأعضاء ضامر الخصر متلاحق الأقراب ، عظيم الكفل مكتنز اللحم ، ممتلىء بالشحم ، ولكنه على ذلك كله لين العريكة سهل القياد كثير الحركة يتلاعب بحديد لجامه .

والفرس عند عنترة كذلك فى جريه يشبه السيل المنهمر على الصخرة الملساء ، ولكنه وصف وجهه ورسم منخريه كسردابين مفتوحين ، يستكن فيهما الضبع لاتساعهما ، وصوّر حوافره بصلابتها كأنها من صخر ، وجعل ذنبه فى طوله كرداء سابغ لرجل غنى واسع الثروة ، وقد أبدع فى وصف عينيه ومشيته حين قال :

سلس العنان إلى القتال فعينهُ قبلاءُ شاخصةٌ كعين الأحولِ (١)
وكأن مشيته إذا نهنهتــه بالنكل مشية شارب مستعجل (٢)

---

(١) سلس العنان : لين القياد — قبلاء : ناظرة إلى أعلى — الأحول : الرجل الذى يحرف إنسان عينيه إلى أحد الجانبين .

(٢) نهنهته : زجرته — النكل : حديدة اللجام .

شبهه بالإنسان الأحول فى عينه والشارب المسرع فى سيره ، فرسم الأشخاص واستعار فى لوحته من ملامح وجوههم وتعثرهم فى الشرب ، فكان موفقاً مبدعاً أيما إبداع ؛ فهو قد أضاف إلى صور الفرس تشبيهات جديدة إذا ضمت إلى صور امرئ القيس خرجنا بمتحف فنىّ لهذا الحيوان الجميل .

والمرقش الأصغر ، ربيعة بن سفيان ، كان من الشعراء الفرسان وكان يغدو إلى الصيد بفرس صافى اللون ، ضامر البطن أملس الجسم جميل الخلق ، أغرّ الجبهة ، محجل القوائم، يصيد الشوارد ويقنص الأوابد، يشاركه حربه وسلمه ، جدّه ولهوه ، ذلول سلس العنان سهل القياد ، لكنه حين يثور تسمع له همهمة وزمجرة كظبية فتية قوية شديدة النشاط لا تهدأ ولا تسكن ، فهو سريع واسع الخطا حين يشدّ على العدوّ ويندفع اندفاع الأتىّ ، فليس فيه عيب ولا يلحقه نقد ، لذلك كان موضع فخره واعتداده واعتزازه ، لا يسبق مطروداً ويلحق بخصمه طارداً ، ويخرج بصاحبه من كل ضيق ، وكذلك تكون الجياد .

والمرقش لا يقف عند أجزاء الجسم وقفة زملائه ، وإنما يصف فرسه بصورة عامة ، ويعدّد منافعه فى لغة أقرب إلى السهولة من شعر أقرانه ، وأدخل فى الموسيقا من معلقات أضرابه، حين يقول :

على مثله آتى النَّدىَّ مخايلاً   وأغمز سرّى أى أمرىَّ أربحُ (١)
ويسبق مطروداً ويلحق طارداً   ويخرج من غم المضيق ويجرح (٢)

ولن نعرض لشعر الجاهليين فى وصف الفرس فهو كثير تجده فى كتب الأدب والمختارات لا يخرج عن أوصاف هؤلاء الذين ذكرنا ، وربما أضافوا إليها وصف القوائم المحجلة ، وعوذوها بالرقى كما فعل سلمة الغطفانى ، أو جعلوها ذكية

---

(١) الندى : النادى — مخايلا : مختالا — أغمز : أشير .

(٢) مطروداً : يطرده فارس وراءه — طارداً : يطرد غيره أمامه — غم المضيق : شدة الأمر — يجرح : يصيد .

الفؤاد متوقدة الإحساس شديدة الشعور ، فأعاروها من نفوسهم مشاعر الحزن والفرح ، والثورة أو الهدوء ، وذلك رسم لعواطفهم وخلجات أنفسهم ينعكس على ما يرسمون .

والخيل الجياد كانت عندهم — كما قلنا — للصيد واللهو والحرب والقتال ، وكانت زينة وموضع فخر ، لذلك رسموا شياتها وصوّروا سماتها ، ووصفوا خلقها ونبلها ، وكانت أوصافهم موضع بحوث اللغويين وأرباب المعاجم ، فجمعوا منها مادة غنية فى مفردات اللغة لأوصاف الحيوان ، وكتبوا فيها مؤلفات واسعة ، يحسن الرجوع إليها للوقوف على عناية القوم بهذا الحيوان ، ومعرفة ما كانوا يصفون منه ، وموضع اهتمامهم بأجزاء الفرس ، ومبلغ إلحاحهم فى ذلك .

الأوابد

وأما الأوابد ، فقد وصفها شعراء الجاهلية كذلك فأمعنوا فى تقريبها من أذهان السامعين ، وأهم أوصافها ما كان فى شعر لبيد بن ربيعة ،والنابغة الذبيانى ، وسويد اليشكرى .

فأما لبيد ، فهو يرسم ناقته فيشبهها بالبقرة الوحشية فى قوتها وضراوتها ، ثم يستطرد كما يفعل غيره إلى بقرته ، فيقول إن السبع قتل ولدها حين كانت غائبة ترعى فى القطيع ، فلما عادت رأت أن لا شىء يعوضها وليدها فثارت وهاجت ، وراحت تنوح وتبكى ، وهى ما تفتأ تذكر ذلك العزيز الذى طوته الأرض وغطاه التراب ، وتناثرت أشلاؤه .وزاد الشاعر فى وصف الحزن فجعل الأمطار تشاركها فى عبراتها وتبكى معها لبكائها ، وهكذا اجتمع على البقرة الحزن والبرد والمطر فلجأت إلى جذع شجرة نائية تقضى ليلها فى جزع وفزع ، وظلت على ذلك ثمانية أيام حتى جف ضرعها .

وبالغ الشاعر فى الجزع فتصور أنها سمعت صوتاً أفزعها ، وأنها عرفت أن

الصيادين فى سبيلهم إليها ، وأنهم رسل المنية ، ووقفت تنتظر المعركة بقلب خافق ، فإذا بكلاب الصيد مسترخية الآذان مزينة بالقلائد فى أعناقها قد هجمت عليها ، فوقفت لهن لتذودهن عن نفسها ، تستميت لتعيش ، فلما وثبت عليها كلبة من الكلاب ضربتها بقرنها فأدمتها وكان النصر .

وهذه الصورة الممتعة لم تعرض لأعضاء البقرة ، وإنما وصفت حزنها وشجاعتها ودفاعها عن نفسها واستماتتها فى سبيل حياتها. فهو لم يقصد إلى وصفها وإنما عرض لرسمها كوسيلة لا غاية ، يصف الناقة ويقربها جملة من البقرة الوحشية ليقفنا على حزن الناقة فى مظاهرها وقوتها وشجاعتها ، فقرنها بالبقرة . وصورته بليغة فى رسم وحشية الصيادين والبطولة الخارقة التى يمثلها هذا الحيوان فى الدفاع عن نفسه .

وهذه الصورة على إيجازها وبساطتها تشبه صورة فى الشعر الغربى الفرنسى رسمها ألفريد ده فينى لذئب أقبل عليه الصيادون فى الليل وأرسلوا كلابهم إليه فأمسك بأجرأ كلب فيها ولم يحول عنه فكيه حتى فارق الكلب الحياة ؛ رغم الطلقات النارية والمدى الحادة التى كانت تمزق أحشاء الذئب . وليس من فرق بين الصورتين إلا فى الفلسفة التى أضافها الغربى ، إذ امتدح نظرة الذئب إلى الحياة يتركها فى شجاعة وصمت ، فهما كل العظمة وما سواهما جبن وخور ، وللإنسان أن يتخذ منها عبرة . وأما الشاعر العربى قبل اثنى عشر قرناً فلم يفلسف قصيدته .

والنابغة الذبيانى فعل مثل لبيد ، فرسم الثور الوحشى فى مكان قليل الماء عديم الغذاء ، ووصفه ضامراً كالسيف ، قد اجتمع عليه كذلك البرد والخوف والحذر والجوع والظمأ ؛ فهو هلع خائف يتوقع صياداً يكتشف مكانه أو كلاباً تهاجمه . وقد وقعت الواقعة فهجمت عليه الكلاب وكانت معركة حامية طعن فيها الثور بطن الكلب فشقه وضرجه بالدم فأصبح كأنه سفود تركه الشرب على النار فاحمر واشتعل . وكان الكلب يعض قرن الثور ولكن من غير جدوى فقد مات

بعدها وهربت الكلاب يأساً وفزعاً لأنها لم تجد فى الفريسة مطمعاً ، فارتضت من الغنيمة بالإياب .

وقصة النابغة كقصة لبيد تصف الحيوان المطارد خائفاً جزعاً ، فاستبسل واستمات فسلمت له الحياة . وقد استخدم النابغة ألواناً جديدة فى وصف الثور ، فجعل قرن الثور يشك فريسته كالبيطار يضرب بالمبضع ليشفى من الداء :

شك الفريصة بالمدرى فأنفذها ... شك المبيطر إذ يشفى من العضد (١)
كأنه ، خارجاً من جنب صفحته ، ... سفودُ شرب نسُوْه عند مفتأد (٢)

فذكر الشاربين حول النار والسفود يحترق فيها بعد أن نسوه ، وصوّر البيطار يعالج داء العضد ، وكل هذا من حياة البادية وألوانها .

وسويد اليشكرى ، وصف الثور الوحشى ضافى الذيل أسيل الخدّ أسود الفخذين فى حمرة تكسوهما جمالاً وتكسبهما رونقاً ، ورسمه حين يعرض له الصياد وكلابه ، فيولى عنها مدبرا ويجرى مسرعاً ، فتعجز عن لحاقه وتقعد عن إدراكه لأنه ابن الصحراء وأخو المفازات ، وله أن يسخر من أعدائه وأن يشمت من الكلاب ؛ فالشاعر يرسم مطاردة الصيادين للثور يجرى أمامهم وهم يلحقون به .

وامرؤ القيس ، مثل سويد ، يشبه ناقته والرحل فوقها بالحمار الوحشى ، فيرسم هربه من كلاب الصيد تشدّ وراءه وهو يخلف فى حربه سحاباً من الغبار يكسو الكلاب ثياب الذل والخيبة ، فتقعد عن إدراكه ، وتنحدر إلى ظل أشجار الغضا يائسات من لحاقه لأنه كان يسابق الريح .

والشاعر يصف الحمار جائعاً ظامئاً طاوى الحشا ، خائفاً متوجساً وحذراً

---

(١) شك : طعن — الفريصة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الخاصرة — المدرى : القرن — المبيطر : البيطار — العضد : داء يصيب العضد .

(٢) صفحة : جانب — سفود : حديدة يشوى عليها اللحم — الشرب : جماعة الشاربين — المفتأد : موضع النار التى فيها الشواء .

متربصاً ، لم ينل من الطعام ما يمسك به الرمق ، فهو كالضبع إذ يهيل التراب ليهيىء فراشاً لنومه ساعة الظهيرة ثم يغفو كالأسير المقيد .

والطريف فى هذا الوصف أن الحمار الوحشى يتصور خاتمته وقد أدركته الكلاب وأمسكت به فمزقته تمزيقاً كما يمزق الغلمان ثياب الرهبان وهم يتبركون بهم ويلتمسون منهم المغفرة :

وأيقنّ إنْ لاقينهُ أنّ يومــه   بذى الرمث إن ما وتنه يوم أنفس (١)

فأدركنه يأخذن بالساق والنسا   كما شبرق الولدان ثوب المقدس (٢)

وعلقمة الفحل ، يشبه ناقته بالظليم ، وهو ذكر النعام ، فيقول فيه إن لونه أحمر حتى لكأنه خضب بالحناء وقوادمه قصيرة الشعر ، وفمه ضيق رقيق الشفتين ، أصمّ لا يسمع الأصوات ، وصدره كعصا الأوتار فى تقوسه ، دقيق الرأس والعنق ، ينشر جناحيه ويضمهما أبداً ، ويجتمع إلى فراخه الصغيرة ، وهم بروك ، فكأنهم أصل النخيل يهيجه المطر وتسوقه الريح ، ويدفعه الهواء الملبد بالغيوم ، فهو فى سير متواصل وسرعة لا تماثلها سرعة .

وعجيب أن نقع على هذا الوصف فى الجاهلية ، فهو شامل حافل ، يصور الحيوان بين أولاده على مقربة من عرسه اللطيفة ، ويرسم ما يكون فى هذه الأسرة الجميلة من تحاب وتواد ؛ ولسنا نرى قرب الشبه بين الظليم والناقة إلاّ فى الطيش وسرعة الجرى وخفة الجسم .

وهؤلاء الشعراء وصفوا ظواهر الأوابد ، وتطرقوا إلى وصف بعض الأعضاء ، فلعل مرد ذلك إلى أنهم كانوا يركبون فى صيدها والحصول عليها ليس غير ، فلم

---

(١) أيقن : الضمير عائد على الكلاب — ذو الرمث : مكان يكثر به شجر الرمث وهو كالغضا ترعاه الإبل — ماوتنه : صابرنه وجالدنه حتى الموت — يوم أنفس : يوم إرهاق الأنفس .

(٢) يأخذن : يعضضن — الساق : ما بين الكعب والركبة — النسا : عرق من الورك إلى الكعب شبرق : مزق — المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس .

تكن لهم كما كانت الناقة والفرس يعيشون معها ويصبحون ويمسون عليها ، وإنما كانوا يرونها فارة هاربة تعرض عنهم كأنها ما تريد اللقاء ، لما كان يقع منهم من عدوان عليها وسعى فى اقتناصها وقتلها ، فهى دائماً جامحة نافرة .

وكان العرب على ذلك ينظرون إلى هذه الأوابد نظرة الحب والإعجاب والرضا ، يريدون أن يحصلوا عليها وما كان ذلك بالهين ولا باليسير فكانوا يطاردونها بكلابهم ويسعون إليها بقسيهم ، وربما جروا مسافات شاسعة فى سبيل ذلك يمرون بالماء والصحراء والنبت والسراب ، ويلقون عناء فى لحاقها ؛ فإذا طاردوها وقعت معركة فيها نضال وغبار ودماء ، تخرج منها فى أكثر الأحيان منتصرة وتقع الكلاب دامية قتلى .

وهذا ما صوره الشعراء فخلفوا صوراً لهذه المعارك لا تقل روعة عن صور النياق والجياد فى متحف الوصف الفنى ، لو تعمد مصور أن ينقلها من اللفظ والقصيد إلى الريشة والقماش لفاقت كثيراً من لوحات المتاحف العالمية .

* * *

ولم يقف الشعراء عند هذه الحيوانات وإنما تطرقوا إلى غيرها فرسموا لها صوراً خالدة وهى تتعارك فيما بينها ، كما يتعارك الإنسان ؛ ورسموا هذه الحروب التى كانت تنشب بين العقاب والذئب أو بين العقاب والثعلب أو بين الصقر والقطاة . ووصفوا الذئب والغول والحية والثعبان والأسد . وسنعرض بعضه عرضاً سريعاً لننتهى منه إلى أن هؤلاء الشعراء الرسامين خانهم الحظ فحرمهم من مدارس الرسم فلم يمسكوا بالريشة ولم يقفوا أمام القماش ، ولم يغطوا أقلامهم من هذه الألوان وإنما نشئوا على الفطرة فرسموا كل ما رأوه بخيالهم ، فسال فى قصيدهم وكان ذلك روعة فى الفن لا تبذها روعة فى شعر الأمم والأقوام لمثل عصرهم وثقافتهم .

العقاب

رسم امرؤ القيس فى إحدى قصائده فرسه وأراد أن يقرب الصورة وأن يجسمها فى الأذهان فجعلها شبيهة بعقاب ، وراح يرسم العقاب فى أعالى الجبال والقمم وقد لمحت عن بعد ذئباً فانقضت من حالق ، وانحدرت إليه ، فهوت كما تهوى الدلو المثقلة بالماء قد انقطعت عراها فسقطت كجلمود الصخر ، وأرسلت مخالبها إليه وأنشبت أظفارها فيه ، فانسل الذئب من تحتها بعد أن نقب جنبه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور ليختفى وراءها حيناً ، ويثير الغبار ليحجب عنه العقاب أحياناً ، ولكن المنية لم تخطئه ولم ينفعه التهرب فقضى !

وهذه الصورة الممتعة جاءت فى متاحف الفن الغربى صورها الفنانون بالألوان فرسموا انقضاض العقاب على الذئب ، ولكنهم لم يوفقوا إلى هذا الكر والفر بين الحيوان المفترس والذئب الهارب ، لأن الصورة لا تتسع لمثل هذه الحركة ، ولم يبلغوا إلى هذه الحكمة التى أرسلها امرؤ القيس :

صبتْ عليه ولم تنصب من أمم　　　إن الشقاء على الأشقين مصبوب [١]

وهذا عبيد بن الأبرص يصف العقاب كذلك فوق رابية عالية قد بلغ اليأس منها لشدة الشيخوخة ووفرة الآلام والأحزان ، فإذا كان الصباح أبصرت ثعلباً يجرى فى فلاة قاحلة ، فطارت إليه وأدركته فطرحته على الأرض وجثمت فوقه وقتلته ، وثقبته بمخالبها الحادة ، وأرسلت أظفارها تنقب فى صفحته وهو فى هلع شديد وجزع عظيم ، يصيح ويستغيث ولكن من غير جدوى .

وهى لوحة جميلة كذلك تصور الثعلب فى خوفه ، والعقاب فى انقضاضها عليه فى شيخوختها ، ولكن هذه الصورة شبيهة بأختها لا تختلف عنها أيما اختلاف

---

(١) صبت عليه : اندفعت إليه — أمم : قرب

رويناها لنقرب بين الشاعرين ، لعلنا نصور الغاية التى وقف عندها الشعر الجاهلى فى مثل هذه الألوان ، كصيد الصقر للقطاة عند زهير بن أبى سلمى وغيره

الذئب

وقد وصف الجاهليون الذئب كما وصفوا غيره من حيوان الفلاة ، فرسموه طريداً شريداً جائعاً يائساً بائساً ، وسنعرض هنا شاعرين صوّراه فأحسنا ، هما : الشنفرى والمرقش الأكبر .

أما الشنفرى فقد رأى فيه حيواناً تتقاذفه الفلوات وتتهاداه المفاوز ، يهوى فى الأودية والجبال باحثاً عن قوت ساعياً إلى طعام ، فيعوى بائساً وينوح هزيلاً ، ولا يردد صداه إلاّ إخوته الذئاب بيض الوجوه شيب الرءوس ، مشقوقة الأفواه كشقوق العصا ، عابسات الملامح كريهة المنظر بشعة ، لأنها تعيش على الصدى وتتقوت بالسراب ، وتغضى على الجوع وتغض أجفانها على القذى .

والمرقش الأكبر ، يقص علينا أنه أوقد النار لشوائه فنزل به ضيف أطلس اللون أغبر ، فرمى إليه بقطعة من الشواء حياء لئلا يقال إنه بخيل على جليسه ، فعاد الذئب جذلان فرحاً يهز رأسه غبطة وسروراً كأنه بطل عاد من الميدان بنىء كثير ونصر كبير . وهذه الأبيات تصور نفسية العربى فى الكرم والسخاء وحب الأحدوثة الطيبة وجميل السيرة ، ولكنه لم يصف الذئب فى أعضائه أو أجزاء جسمه .

وهذان الشاعران وصفا الذئب فى يأسه وبؤسه وجوعه وهزاله ، فجعلاه يبحث عن القوت والعيش على موائد الكرام .

* * *

ولسنا نتعرض بعد هذا إلى وصف الغول أو الحية أو الثعبان أو الأسد ،

فهم رسموا الخوف منها والذعر لمنظرها . ولكننا نحب أن نجمل الرأى فى وصفهم للحيوان ، فهم صوروا الأنيس والمستوحش ، فأجادوا فى رسم أعضاء الناقة والفرس وأحسنوا فى وصف ما يكون من الحمار الوحشى أو البقرة الوحشية أو الذئب والعقاب . وقد وصفوا الأنيس كذلك فى قوته وضخامة جسمه وتحمله المشاق وبلوغه إلى الغايات ، ورسموا المستوحش فى جوع وظمأ ويأس وفقر كأنهم يفرقون بين الحيوان الذى يعيش فى كنف الإنسان على عز ورعاية وحب ، وبين الحيوان الذى يعيش هرباً من الإنسان على خوف وذعر ورعب ، أو لكأنهم يجدون فى الآنس صورة للرجل المترف والبطل المناضل والشجاع الفارس ، ويجدون فى المستوحش صورة للصعاليك واللصوص وقطاع الدروب .

ونلاحظ كذلك أنهم استخدموا فى تعبيرهم الألفاظ الجزلة والكلمات الضخمة عند ما وصفوا الحيوان ، فلما تغزلوا أو وصفوا أحاسيسهم وعواطفهم رقت تعابيرهم بعض الشىء ، وخفت وحشية الألفاظ — كما رأينا فى كتاب الغزل والرثاء ، وكما نرى بعد فى فن المديح إذ تشترك فى المعلقة الواحدة أو القصيدة عينها هذه المعانى جميعاً كأنها مجموعة من الأغراض والفنون تجمعها قافية واحدة . ونرى كذلك أنهم عمدوا فى وصف الحيوان إلى البحور الطويلة لعل الأبيات تتسع لمعانيهم كاملة فيستقل كل بيت بالخطوط التى أراد الشاعر بيانها .

ولعلنا أطلنا فى عرض الوصف عند الجاهليين ، وذلك لأننا نعتقد أنه كان دعامة متينة للعصور التالية وأساساً عميقاً يبنى عليه الشعراء فى المستقبل شامخ مجدهم وعزهم ، يقلدونه ويأخذون منه على كر الزمان والأحقاب .

الفصل الثانى

العصر الجاهلى

وصف الطبيعة الميتة

الأطلال — الصحراء — الليل — السحاب والمطر

قامت حياة العربى على الرحلة والانتقال سعياً وراء الكلأ وبحثاً عن الماء، يقيم حيث يرى الرزق ، فيحل بخيمته وينصب أثافيه ويوقد النار ويعيش حتى ينضب هذا المورد فينتقل إلى غيره، ويعيش بذلك فى مساس مع الطبيعة وتجاور مستمر ، يرعى النجوم فى أفلاكها، وينظر إلى السماء وكواكبها، ويراقب السحب والغيوم والرعد والبرق ، يعبر الصحراء ويمر بالوهاد والتلول والنجاد والسواقى والمياه ، فهو فى صلة مع هذه الظواهر لا تنقطع ، تقع عليها عيناه فى الصباح والظهيرة والمساء والليل كأنه راصد فلكى أو جغرافى باحث ! . .

وليس غريباً أن يقع على آثار من حل قبله أو يمر بالأماكن التى نزل بها غيره، فيرى الأطلال والديار والدمن والأوطان بين نازح يرتحل ومنيخ يحط رحله، فتتنازع الشاعر عواطف غريبة لهذه الصحراء والبادية والخباء والخيام، ويرى فيها موضوعات مختلفة، تحدثه الأحجار عن حب سلف أو معركة نشبت أو قوم لهوا أو غارات وقعت ، فينطلق لسانه بما يلفه من مكان أو يطوف برأسه من حوادث الزمان ، فيرسم الطبيعة ويصور ما تقلب عليها من حب وحرب وطعن وضرب وصيد وقنص .

وقد وصلت إلينا فى الشعر الجاهلى أوصاف الأطلال والليل والسحاب والبرق والغيث والصحراء سنعرض لها فى إيجاز كذلك، لنتبين أين مكان القوم من هذه الصناعة أو هذا الفن .

الأطلال

عرض امرؤ القيس فى معلقته إلى هذه الأطلال فوصف رسوم الديار وقد تقلبت عليها الرياح السافيات ، ورسم بعر الآرام تملأ العرصات صغيرة كحب الفلفل ، فبكى لرحيل القوم وزفر فى أسى ، ولكن الدموع لا ترد الأحبة والأسى لا يقرب البعيد .

وعرض زهير بن أبى سلمى إليها كذلك فرآها قد انمحت ودرست ، وصارت بعد أن هبت الريح وجرى السيل كبقية الوشم فى عروق المعصم ، وقد أصبحت هذه الأطلال موطناً للآرام ومرتعاً لبقر الوحش ينتقلن فيها من مكان إلى مكان ، ولم يبق من أثر الحبيبة وأهلها إلا هذه الأحجار السوداء وقد تقلبت عليها النار فاختلطت حمرتها بالسواد ، فأين دارها بعد عشرين عاماً ، وأين كانت تميس وتختال ! لقد حملت الريح كل شىء ولم يبق فى ذاكرة زهير إلاّ صورتها البعيدة تعيش فى خياله .

وأما لبيد بن ربيعة فقد وصف الأطلال كزميليه ، فرأى أن حججاً كثيرة تقلبت عليها فأصبحت مرعى الظباء والنعام والبقر الوحشى ، وغدت مرتع الأوابد بعد أن كانت موطن الجمال والحب والفتنة ، وقد تعاقبت الرياح والسيول على هذه الأطلال فكشفت عن آثارها القديمة، فغدت كأنها كتب تقادم عهد كتابتها فجدد الكاتب سطورها ، أو كأنها وشم ذهب أثره فى اليد فأعادت المرأة شكله بالكحل تذره عليه . وما بدت هذه الديار واضحة المعالم حتى وقف الشاعر يتخيل الأحبة وقد عادوا مع الربوع واستوطنوا بعد غيبة ، فناجاهم وساءل الرسوم

عنهم ، ولكن لا جواب ولا حديث ، وإنما الوجد والهوى يخيل معهما للعاقل ما لم يقع ، فكأن اللب قد سلب أو كأن العقل قد شرد .

والنابغة الذبيانى ، نظر إلى الأطلال فتصور مجالس الحيوان ومعالفه والخادم ، قد خلت السبيل للماء المنهمر يغمر الدار ويبلغ إلى الأثاث ، فقد خلت من أصحابها وأخنى عليها الدهر .

والمرقش الأكبر ، رأى الدار خالية مقفرة ، احتمل أهلها ليلاً لأنهن منعمات لا يحتملن سفر النهار ، فالشمس شديدة على أجسادهن المترفة ، فعمر الوحش المكان وسكنته البقر ترعى العشب وتمرع فى الأرض كأنها رجال من العجم يختالون فى قلانسهم

والحارث بن حلزة اليشكرى ، أرسل أسفه حسرة حين رأى الديار خالية من أوانسها الفاتنات ، قد عمرتها قطعان البقر الوحشى بيضاء الظهور تبدو كأشعة الشمس فى سطوعها ، وسكنتها الجياد فتركت فيها آثار وطئها ومواضع ركضها .

وثعلبة بن عمرو العبدى ، مغمور فى الشعراء ، ولكنه ترك وصفاً رائعاً للديار الخالية ، يتلخص فى أن فعل الحدثان وتعاقب الغيوث على الأرض تشبه فعل الأصباغ فى زخارف البيوت ، أو تشبه رسم الكاتب يخلف رسوماً دقيقة وأشكالاً منمقة بدواته ، وهو يرفع يده ويضعها فى هدوء وسكون لا تطرف عينه ولا يتحرك جفنه ، كأنه مأخوذ بما يصنع من رسم وتحبير . وهذه صورة موفقة لم يقع عليها الشعراء المشهورون .

وخلاصة القول فى هؤلاء الوصافين أنهم اتفقوا فى رحيل القطان عن الأوطان ، واتفقوا فى الحيوان الذى حل بالمكان ، ولكنهم اختلفوا فى رسم الأرض وقد تناوبت عليها الرياح والأمطار ، فأصبحت فى نظر بعضهم كباقى ظاهر الوشم فى اليد أو اختلاط الأصباغ بالأصباغ على يد فنان رسام أو كاتب ملهم ، وكلهم

ذكر حياة الأحبة قبل الرحيل فتصور النعيم والترف ، وتصور الأثاث ومراكض الحب ومرابع الحب .

الصحراء

رأى الأعشى أن الصحراء أشبه بظهر الترس فى استوائها ، وأنها مقفرة موحشة فما يسكنها إلا الجن يمرحون فيها ويصخبون خلال الليل حين يلف السكون عالم الصحراء ويخيم الظلام ، فهى وطنهم ومرتعهم ومحل عبثهم ودنياهم . فإذا أشرق النهار وعمت الشمس بعد ذلك أرجاء الكون اشتد القيظ والهجير فما يطيقه إلا الفرسان الشجعان والأبطال الغطاريف ، فهم يقطعون الصحراء ويقتحمون الأهوال والمخاطر .

والمرقش الأكبر يصفها سوداء لبعد عهدها بالنبات وحرمانها من الماء ، فالإبل تسير فى ضنك وإرهاق متعبة مكدودة ، والعابرون يصيبهم النعاس لجمود الطبيعة وسكونها وشدة ما يكتنفها من ظلام .

وسويد بن أبى كاهل ، يصف الفلاة كأنها رأس أصلع فيه بقايا من الشعر ، ويرسم السراب يسبح فى البيداء ويرقص على الجبال فهى مخوفة هائلة .

الليل

تخيل امرؤ القيس أن الليل حين يرخى ستائره على الكون شبيه بالبحر حين يغمر السابحين ، وأن نجومه المتلألئة كأنها مربوطة بأمراس شديدة الفتل إلى رأس جبل لا تريم ولا تتحرك ، ثابتة ، ثقيلة الوطء على الساهر المحزون . والشاعر يجد فى الليل موضعاً للفخر ، كأن الليل يبلو قوته وشجاعته .

والنابغة الذبيانى ، يحسب الليل أبدياً لبطئه وطوله ، كأنه مقيم لا يرتحل ، أو كأن الراعى الذى يسوق النجوم إلى غايتها قد نسى قطيعه وسافر فما يعود !.

ومهلهل بن ربيعة ، أصابه الهم فطال سهره ، وجفاه النوم ، فكأن النجوم واقفة ، أو كأن كوكب الجوزاء كنياق تجمعت حول وليدها وفصيلها المكسور فلا تبرح مكانها ، أو كأن الفرقدين يدا رجل مقامر بغيض لا تقفان عن الحركة حول القمار ولا تتجاوزانه .

وهؤلاء الشعراء اتفقوا فى أن النجوم ثابتة بطيئة أبدية لا تتحرك ، ولكن أحدهم شبهها مربوطة بالحبل ، وآخر جعلها كالقطيع نسيه صاحبه ، والثالث شبهها بالنياق المتجمعة النائحة أو المقامر المأخوذ باللعب .

السحاب والمطر

ويرى امرؤ القيس أن المطر حين ينسكب يملأ الأرض ويغمرها فيخفى أوتاد الخيم ويغطى الأشجار فما تبدو منها إلا رءوسها يعلوها الزبد ، فيخيل إلى الرائى أنها رءوس مفصولة عن أعناقها تسبح فى الماء . ووصف الأعشى البرق يلتمع ثم يخبو ، فرأى أنه كشعلة تومض وتنطفى أو شرارة تبدو وتختفى ، والسحاب العارض ظلمات متراكمة تسح وتنسكب فتملأ المياه كل مكان، وتجاوز الحد فتبلغ الأمكنة العالية والكثبان المنتشرة .

وأما عبيد بن الأبرص ، فيرى أن البرق يضىء كالصبح فى لمعانه ، وأن السحاب يدنو من الأرض حتى ليحسب الأنسان أنه يمس خطوطه بيديه أو يدفعه بكفيه :

يا من لبرق أبيت الليل أرقبــه فى عارض كمضىء الصبح لماح (١)
دان مسف فويق الأرض هيدبه يكاد يمسكه من قــام بالراح (٢)

وليس فى هذه الصور للسحاب والمطر كبير غناء إذا استثنينا وصف امرئ القيس

(١) العارض : السحاب الذى يعترض فى الأفق — لماح : لماع .
(٢) دان : قريب — مسف : مار على وجه الأرض — هيدبه : خيوطه — الراح : الكف .

للرءوس المفصولة ، فكلها تشير إلى هذا السيل المتدفق الذى يغمر الأرض ويملأ الأمكنة . وقد وصف الجاهليون ما يصيبهم من برد أو حر ، ورسموا أثر الأمطار فى الرياض حتى يضحك الزهر ويينع الثمر ويفوح العطر ويغرد الذباب ، وعنترة العبسى يشبه الذباب بالشارب الثمل حين يتغنى فى سروره ومرحه .

وخلاصة القول فى شعر الوصف عند الجاهليين أنه قاتم يصور حياتهم الحزينة ورسومهم الكئيبة وديارهم المقفرة ، تعمرها الأوابد والوحوش ، وحين تصيبهم الأمطار تكسب السماء عبوساً والبيوت اضطراباً . وذلك لاضطراب عيشهم وشدة تنقلهم وضربهم فى أطراف الأرض وراء الرزق ، فلا قرار ولا هدوء كأنهم يكتوون بالشمس ويرزءون بالرمل والأنواء فتغدو حياتهم كالجحيم ، ولذلك كانوا يحلمون بالنعيم وبالجنان ، وبالهدوء والشراب السائغ والوسائد الناعمة ونوم الضحى ، ويرون فيها مثلاً أعلى لآمالهم .

الفصل الثالث

العصر الجاهلى

وصف الخمر والسقاة

الأعشى ـ عمرو بن كلثوم ـ علقمة ـ الأسود النهشلى ـ عدى بن زيد

رأينا أن العربى كان فى حياته الجاهلية على صراع دائم ونضال مستمر ، طوراً يقف للطبيعة القاسية ، وطوراً للعدو الغازى والمحارب المنتقم ، فكأن أيامه كما يصورها شعر الجاهليين كانت حزينة فى أكثر الأحيان . ولا بد لدفع هذا الحزن فى نظره من شراب ينسيه وخمر تعزيه فيسلو الآلام وينتعش للآمال . ولعله شرب الخمر ليستقبل الموت أو يستلهم النشاط ، فهو يعتقد أن العمر قصير وأن الفناء قريب منه يفجؤه فى كل حين ؛ تعدو عليه الطبيعة أو يسطو عليه العدو .

ولسنا نملك التحقيق فى أولية الشعر الجاهلى أو صحته لنعرف أول من شرب وأول من وصف الشرب ، ولكننا نستطيع أن نقبل أن الشعر الذى بلغ إلينا يمثل ما قاله الشعراء الجاهليون فى مبادئه وأسسه ـ كما يقول العلماء اليوم ـ فنتخذه وسيلة إلى دراسة هذا الوصف فى الخمر والسقاة ، كما اتخذناوصف الحيوان والطبيعة.

وقد أتانا أن أحسن الوصافين للخمر فى الجاهلية هو الأعشى وأنه كان زعيم المدمنين وسيد الشاربين ، أطال صحبة الشراب وعرف ما يتقلب عليه من ألوان وصفات ، فجاء بصورة جميلة كانت موضع التقدير والتقليد خلال عصورنا الأدبية كلها فى قصيدته المشهورة :

فقمنا ولما يصح ديكنا ... إلى جونة عند حدادها (١)
تنخلها من بكار القطاف ... أزيرقُ آمن أكسادها (٢)
فقلنا له : هذه هاتها ... بأدماء فى حبل مقتادها (٣)
فقام فصب لنا قهوة ... تسكننا بعد إرعادها (٤)
كميتاً تكشف عن حمرة ... إذا صرحت بعد إزبادها (٥)
فجال علينا بأبريقه ... مخضب كفّ بفرصادها (٦)

فهو سينطلق قبل أن يصحو النيام ويصيح الديك مؤذناً بالفجر ، ويقصد خابية مترعة يحفظها خمار حريص تخير كرمها ، وجناها رجل رومى خبير بصناعته مطمئن إلى بيعها ورواجها ، فيطلب إليه أن يترع الأباريق وأن يدفع له ثمنها ناقة أدماء ، فقام الخمار وصبّ قهوة تهدئ النفوس بعد ثورتها ، فكانت فى لون الحمرة القانية حين تصفو رغوتها ويزول زبدها . وجال بها الساقى فطاف علينا بكؤوسه وهو مخضب الكف ، فشربنا حتى خارت القوى وسكن الجسم .

ويقص الأعشى بعدها ما وقع لزميله من شدة الشرب خلال النهار كله ووهناً من الليل ، فى أسلوب رقيق ومشاهد متعاقبة حية ، تنبض بالنشاط وتضج بالحركة ، وقد نقل إلينا ما دار من حوار خلال ذلك :

---

(١) ديكنا : ديك الفجر — الجونة : الخابية المطلية التى توضع فيها الخمر — حدادها : خمارها ، سمى كذلك لحفظه إياها .

(٢) تنخلها : تخيرها — بكار القطاف — مباكرة القطف والجنى — أزيرق : تصغير أزرق وهو صاحبها ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين — إكسادها : بوارها .

(٣) أدماء : ناقة يخالط بياضها سمرة — مقتادها : صاحب قيادها .

(٤) قهوة : خمر — تسكننا : تهدئنا — إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .

(٥) كميت : خمر يغطى حمرتها سواد — صرحت : صفت — إزبادها : فورانها وانتشار الحبب فوقها .

(٦) مخضب كف : مصبوغ الكف بخضاب الحناء — فرصاد : صبغ أحمر ، ويطلق على التوت الأحمر .

فقال : تزيدونـــنى تسعة وليست بعدل لأندادها [١]
فقلت : لمنصفنـــا : أعطه فلما رأى حرص شهادها [٢]
أضــاء مظلتـــه بالسرا ج ، والليل غامر جدادها [٣]

وهذا وصف لطيف للشرب فى البادية ، وأحاديث تقع خلال ذلك على الزمن ، سبق إليها الأعشى والفضل للمتقدم .

وأما خمر عمرو بن كلثوم فهى صفراء من خمر « أندرين » مزجت بالماء الحار كما يفعل الروم فى بلدهم ، فأنعشت الشارب ورققت الطباع وأحالت الرجل الضيق سمحاً ليناً ، والرجل الشحيح سخياً كريماً :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا [٤]

وعلقمة الفحل ، يطلبها معتقة معصورة من العنب كغيره ، ولكنه يجد أنها تشفى الصداع وتزيل الدوار ، ولا يصيب الرأس منها وجع ، ذلك لأنها من « عانة » قد لبثت فى دنها سنة كاملة . وساقى علقمة رومى كذلك يغطى فمه عند السقى بشىء من الكتان على عادة الأعاجم ، وأما إبريقه فيشبه ظبياً وقف على محل مرتفع قد لف بالكتان وكسر أنفه .

وقد أضاف الشاعر بهذا صورة للروم السقاة حين يغطون أفواههم بالكتان ولعل ذلك لئلا يشاركوا الشرب فى استنشاق عبيرها أو يفسدوا رائحتها بأنفاسهم ، كما يفعل الأطباء اليوم عند ما يحذرون خطر أنفاسهم على المريض ، فالخمر دواء فى رأى هؤلاء الشعراء ، يتناوله المرضى فى سبيل الصحة والقوة والعافية ، وليس للساقى أن يفسد الدواء :

---

(١) أى تسعة أباريق — عدل : معادلة — أنداد : نظراء .
(٢) المنصف : الساقى والخادم .
(٣) مظلة : خيمة — غامر : شامل — الجداد : الأهداب .
(٤) تجور : تميل — ذو اللبانة : صاحب الحاجة .

تشفى الصداع ولا يؤذيك صالبها ولا يخالطها فى الرأس تدويم [١]

والأسود بن يعفر النهشلى ، يصف السلافة وقد مزجت بماء الأمطار ويصور الساقى ، يلبس فى خصره منطقة ، ويحمل فى أذنيه أقراطاً . وفى صوته غنة جميلة ، وفى أنامله حمرة الفرصاد . ثم يرسم المجلس وقد طافت بالشرب غانيات كالدمى من رخام فى جمالهن أو كالبدر فى بياضهن ، نواعم يمشين بالأقداح الجميلة فيرمين القلوب بالمحاجر ، ويسقين بأحاديثهن وأقوالهن فيسكر القوم بخمر العيون وخمر الكؤوس وفتنة الأحاديث .

وهذا مجلس من مجالس الشراب لا يبذه مجلس للعباسيين ، ففيه ساق جميل وفتيات نواعم سواحر . ولعل هذا هو الذى أذهل الشاعر عن وصف الخمر وعتقها وجمال الكأس وصورتها وحوار الشرب وأحاديثهم ، فكأن السكر يكون بالعيون والألفاظ لا بالكؤوس والشراب .

وعدى بن زيد ، أقبل على الشراب كذلك ووصفه ، فصور الساقية قينة فى يمينها إبريق الخمر قد صفته بالمصفاة ، ثم وصف الخمر سلافاً كعين الديك فمزجه بالماء ولذ طعمه ، ونظر إليه وقد علت سطحه فقاقيع حمراء كالياقوت فأحبه ، ووصفه بأسلوب لطيف قال فيه :

بكر العاذلون فى وضح الصبـ ـح يقولون لى : أما تستفيق ؟
ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة فى يمينها إبريقُ [٢]
قدمته على عقار كعين الد يك صفى سلافها الراووق [٣]
مرةٌ قبل مزجها فإذا مـا مزجت لذ طعمها من يذوق

---

(١) الصداع والصالب : وجع الرأس — التدويم : الدوران .

(٢) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح .

(٣) فدمته : صفته بالفدام وهو مصفاة توضع فوق الإناء ليصفى ما فيه — العقار : الخمر — السلاف : خالص الشراب وأوله — الراووق : المصفاة .

وطفا فوقها فقاقيع كاليا قوت حمر يزينها التصفيق (١)
ثم كان المزاج ماء سحاب لا صدى آجنٌ ولا مطروق (٢)

وهكذا شرب الجاهليون خمرهم فى الصباح عند الفجر ، واختاروا الحمرة لوناً لها ، وأحبوها معتقة ، وفضلوا أن يكون الساقى جميلا فى وجهه عذباً فى صوته ، وأن يكون على لباس خاص ، وأن تحيط الغانيات بمجلس الشراب . وبذلك عرفنا ما كانوا يرغبون من لونها وتصفيقها . وما كانوا يحبون من جنسية ساقيها ولباسه ، ويشهدنا من عاداتهم فى تقليد الفرس والروم فى ذلك ، وأنها تكلفهم ثمناً غالياً ، فلعلها وسيلة للمدح والفخر والاعتزاز للثراء والنبل والفتوة . ولا بد كذلك أن يكون فى الشعراء من لم يستطع الإكثار منها ولكنه جارى غيره فى وصفها وأسهم فى نعتها ، ليقال فيه ما يقال فى السرى النبيل ، وشأنهم فى ذلك شأن من يقول فى الغزل وهو لا يشعر بالحب ولا يكتوى بالبعد .

(١) التصفيق : نقل الشراب من إناء إلى آخر ليصفو .
(٢) صدى : متغير — آجن : راكد وفاسد — مطروق : مباح للناس .

الفصل الرابع

العصر الجاهلى

وصف السلاح والحرب

الرمح – السيف – القوس – الدرع – المعركة

السلاح

لا بد من السلاح فى حياة البادية ، فهى غزو أو صيد ، يدافع به العربى عن نفسه ضد عدوه من الإنسان أو الحيوان . وكان هذا السلاح معدوداً ينحصر فى السيف والرمح والقوس والدرع والسهم والنبل ؛ وهى من حديد أو شجر . وقد تعاقب الشعراء على وصفها واعتزوا بها ، فهى عدة للشجاعة والفخر ، ووسيلة المديح والقوة . وقد عنى العرب بها عناية عظيمة فأطلقوا عليها الأسماء وأكثروا فى ذلك ، حتى كانت لهم فيها كتب كثيرة تضم ثروة عظيمة من مفردات ، وكان من وراء هذه الكتب معاجم غنية واسعة .

وأوس بن حجر ، هو أحسن الشعراء وصفاً لها فيما ترى كتب الأدب ، فقد انصرف إلى الشجاعة والبطولة ، ورسم سلاحه كله فى قصيدة طويلة ، سنعرض لمعانيها فى شىء من الإيجاز لنبلغ أولى صوره ورسومه قال :

لقد أعددت للحرب بعد ما كشر نابها رمحاً صلباً كأن كعوبه نوى التمر فى

النعومة والملاسة صنعته ردينة فأحسنت صنعاً ، فهو يلتمع فى نصله كما يضىء مصباح الملوك فى يوم عيد .

وأعددت درعاً ملساء أنفق ناسجها عاماً كاملاً فى صنعها ، تشبه الغدير فى تماوجه حين تعبث به الريح ويداعبه النسيم ، فتلتمع كأن أشعة الشمس قد صادفت مستشرفاً من نبت صغير منفرد .

وأعددت كذلك سيفاً مهنداً كأن حده برق تلألأ فى وسط سحاب ، إذا سل من غمده اشتد لمعان جوهره كما يلتمع إناء الشرب وقد صنع من لجين ، فكأنه فى التماع صفحتيه دبيب نمل صاعد وآخر نازل .

وجهزت قوساً صنعت من فرع شجرة نبتت فى جبل مجلل بالسحاب على ظهر صخر أصم فاكتسب صلابته من الصخر ، قطفه صاحبه فى عناء كبير ، وخاطر فى سبيل الوصول إليه ، لأنه من العود النادر فى صلابته ومنعته ، فإذا بلغه قطفه ، وأمر شفرته عليه وأرسل سكينه فصقلها وجرّدها صفراء لا يعيبها قصر ولا طول . فإذا تناول الرامى هذه القوس وأنبض الوتر سمع صوتاً حنوناً ، وإذا شد السهم ذهبت بعيداً .

والكنانة التى أعدها ، حشاها بالسهام من فروع الأشجار الغريبة ، وقد تأنق فيها صانعوها وتمهلوا فى صقلها ، فركبت فيها النصال حمراً كجمر الغضا فى يوم ريح ، فلما تمت كساهن ريشاً من بلاد اليمن أغبر يميل إلى السواد .

هذه عدة الشاعر : رمح ودرع وسيف وقوس وكنانة ، وصفها الشاعر فى قصيدة واحدة وصفاً دقيقاً ، وذكر منبتها ومنشأها وقصة صنعها وأوغل فى التفصيل حتى لم يترك قولاً لقائل . وقد أسهب فى قوسه فخصها بثمانية عشر بيتاً لأنها كانت أحب سلاحه إليه .

والشماخ بن ضرار وصف قوسه وخص بها كثيراً من الأبيات ، قص فيها ما قام به القواس فى تحسس الأشجار والبحث عن صلابتها ومتانتها والتعرف إلى

جدرها حتى إذا وقع على ضالته تناولها بالفأس ، ولبث عامين كاملين يثقفها ويقومها ؛ فإذا جاء الموسم أقبل بقوسه فخوراً مزهواً فباعها وهو دامع العين ، وأما الشارى فقد اختبرها فرأى أن وترها يترنم كترنم الثكلى ، وأنها تصوت حين يخترق سهمها جسد الظبي ، فلا مهرب له منها ولا تنجيه قوائمه من سلطانها .

والشماخ مثل أوس فى معانى قوسه ، اختار الشجر واصطفى القاطف ، ووصف ما بذل من الجهد فى سبيلها . وقد سار كثير من الشعراء الجاهليين على سنن أوس ، فجمع راشد اليشكرى فى قصيدته وصف السيف المشرفى القاطع ، والقوس ذى الصوت الحنون ، والرمح الأسمر الصلب ، والدرع المضاعفة النسج ، وفعل مثله ثعلبة العبدى فجمع فى قصيدته وصف الدرع والرمح والقوس والسيف .

الحرب :

وكثرت الحرب بين العرب فاعتبروها وسيلة من وسائل الرزق فيها الغارة والسلب والثأر ، بل فخروا بها وتمدّحوا بشجاعتهم فيها ، فهى شارة القوة ودليل البأس ، وقد خلق الرجال لخوض غمارها ، فكانت تأكل منهم وتهد من قوتهم وتضعف من نسلهم ، ولذلك سعوا إلى كثرة الأولاد ليعوضوا على القبيلة شبانها وفرسانها ، وهكذا شغلت شعراءهم فوصفوها ورسموا ما دار فيها من طعان ونزال ، وصوروا الخيول والأسلحة وما يقع من أصوات خلال المعركة ، وما تنتج من ضحايا ، ونظر كل منهم إليها نظرة خاصة .

وتروى كتب الأدب أن دريد بن الصمة أكثر الفرسان غزواً وأبعدهم أثراً وأكثرهم ظفراً ، وقد قتل يوم حنين ، فعاش فارساً ومات فارساً ، وقد وصفها وهو يحامى عن أخيه عبد الله قال : أقبلتُ على أخى والرماح تنوشه من كل حدب كما تقع الشوكات فى الثوب المنسوج ، فكنتُ كالناقة تقبل على ولدها الذبيح تشمه وتتحسسه . فلما دخلتُ الميدان تناولتنى الرماح وشققت جلدى ، ولكننى صابرتُ وطاعنت الخيل عن جثته حتى تفرقت جموعهم ، والمرء لا بد فان ، فعلام الخوف ؟

فطاعنتُ عنه الخيل حتى تنفست وحتى علانى حالك اللون أسودِ (١)
قتال امرئ آسى أخاه بنفسه ويعلم أن المرء غير مخلد (٢)

وهكذا وصف غبار المعركة حوله وصور الخيل متألبة عليه ولكنه ناضل حتى انتصر .

واشتهر عنترة العبسى فى أساطير البطولة حتى ألصق به شعر كثير ، وقد نقل إلينا فى ديوانه أنه وصف فرقة كثيفة هاجم بها فرقة أخرى ، وصور الرماح المتساقطة والقنا المتهاوية كأنها شهب تتساقط فتنير الظلام ، والخيل الضوامر تعدو عوابس بفوارسها المدججة بالسلاح ، وقد خف الحلم وثبت الفرسان للنزال .

ونقل إلينا فى شعره كذلك أنه حمل بمهره على قلب الكتيبة المعادية فمزقها ، وما زال يناضل حتى اصطبغت الخيول الدهم بالحمرة من دماء الفرسان ، وكأنها تتعثر فى مستنقعات الدماء ، وعاد منتصراً يحمل رأس عظيم الكتيبة ، وخلف الأعداء كالنياق المذبوحة طعمة للجوارح :

حتى رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها
يعثرن فى نقع النجيع جوافلاً ويطأن ، من حمى الوغى صرعاها (٣)
فرجعتُ محموداً برأس عظيمها وتركتها جزراً لمن ناواها (٤)

وقد صور شعراء آخرون حروبهم ضد القبائل ، فرسموا قوة الخيل وسرعة عدوها حتى لكأنها تبارى الحمر الوحشية وتقتحم الهيجاء ، وحتى كأنّ أسنتها حبالٌ يمتح بها ماء البئر لشدة طولها وإدراكها الغاية . وصور بعضهم الحرب كزهير بن أبى سلمى فى سوءاتها وويلاتها ، فهى كريهة ، وهى كالنار تأتى على الهشيم ، وهى

---

(١) تنفست : تفرقت — حالك اللون : يقصد به الغبار الكثيف من وقع الحوافر حوله .
(٢) آسى : سوى — مخلد : خالد .
(٣) النجيع : الدم الأسود المتجمد — حمى الوغى : شدة الحرب .
(٤) جزر : ج جزور ، وهى الناقة تجزر — ناواها : ناوأها وعاداها .

كالرحى تطحن كل شيء، وكالناقة تلد أشأم الغلمان . وجعلها امرؤ القيس عجوزاً ليس لها خليل، وشمطاء دميمة قبيحة قد جزت شعرها وتنكرت فهى بغيضة لا يقربها لاثم أو محب .

وكثيرة هى أشعار العرب فى الحروب ، وصل إلينا بعضها ، وضاع كثير منها مثل : حرب داحس والغبراء، والبسوس . والذى بقى يدل على ما ضاع ، فقد انتثر فى معلقات الحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وقصائد الأخنس التغلبى والحارث المرى وعامر بن الطفيل ؛ وملأ صفحات التاريخ والأدب ؛ وهو سفر ضخم فى البطولة لو سعينا إلى تحقيقه وجلائه ودراسته لكانت لنا صور تبذ الملاحم اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، كالإلياذة والإنيادة والشاهنامة والمهابهارتا فى دقة الوصف وعمق الخيال .

وكلها تصور هذه الحياة الحزينة المتشابهة من غير تكلف أو صنعة ، فإذا ابتسمت حيناً كانت صورة الأمل الذى خالج قلب الشاعر، وبارقة الحلم التى راودت خياله إلى حين .

الفصل الخامس

الوصف فى العصر الأموى

الأخطل — الفرزدق — جرير — العجاج — رؤبة بن العجاج — الراعى — ذو الرمة

دخل العرب فى طور جديد حين ظهر الإسلام، فأصبحوا يقاتلون من أجل الدين فى جيوش كبيرة ، وكانت لهم وقائع ومعارك ضاعت أوصافها أو وقفوا دون رسمها لحدة الموضوع وخطورة المقال ، فنحن لم نقع على شىء فيها فحرمنا هذه الثروة . ولما كان عصر بنى أمية ظهر الشعراء فى العراق وانتقلوا إلى الشام ، ولكنهم ظلوا على الأوصاف القديمة الجاهلية ، فركب الأخطل ناقته وشبهها بالثور الوحشى أو بحمار الوحش، ووصف المعركة بين الثور وكلاب الصيد كما فعل الجاهليون قبله ، لذلك ألحقه بعض النقاد بالشعراء فى الجاهلية .

وجمد الفرزدق عند القديم البدوى من الألفاظ والصور، فوقف على الأطلال كما وقف امرؤ القيس حتى لكأنه سرق عباراته حين يقول :

وقوفاً بها صحبى علىّ وإنما ... عرفتُ رسوم الدار بعد توهم

يقولون : لا تهلك أسى ولقد بدت ... لهم عبرات المستهام المتيم

فقلت لهم : لا تعذلونى فإنها ... منازل كانت من نوار بمعلم

فهو لا يحس إحساس القدماء ولكنه يقلدهم فى قصيدهم ويتصنع الشوق إلى ديار الأحبة، على أنه فى مفرداته يبدو أقل غرابة وأخف إمعاناً فى القديم منهم ، فقد وصف الذئب وقال :

وليلة بتنا بالغريين ضافنا		على الزاد ممشوق الذراعين أطلس
تلمسنا حتى أتانا ولم يزل		لدن فطمته أمه يتلمس
ولو أنه إذ جاءنا كان دانياً		لألبسته لو أنه كان يلبس
ولكن تنحى جنبه بعد ما دنا		فكان كقيد الرمح بل هو أنفس
فقاسمته نصفين بيني وبينه		بقية زادى ، والركائب نعس

ونحن حين نوازن بين هذا وبين ما قاله المرقش الأكبر نجده يحذو حذوه ويتبع خطوه ، فذاك يوقد النار ويشوى للذئب ، وهذا يقاسمه الزاد . على أن المرقش وصف الذئب بعدها فرحاً جذلان يهز رأسه غبطة لهذا الذى أصابه ، والفرزدق يجد فيه وسيلة لامتداح كرمه فحسب ، لا يلم بالذئب إلاّ فى قوله: ممشوق الذراعين أطلس ، ولا يرهبنا وصفه له ، كأنه كلب أو قط أو أى حيوان آخر . وحين نقفه إلى جانب الشنفرى نجد الشاعر الجاهلى قد وصف الذئب فأدخل الرعب فى قلوبنا ، وصور اللون والملامح والقسمات ، ولم يدعه إليه ولم يقاسمه زاده .

والفرزدق وصف الذئب ثانية فقاسمه الزاد ووقف منه موقف الحذر ، وعاهده عهداً لا يخونه ، ونحب أن نروى هذه الأبيات شاهداً على الوصف عنده :

وأطلس عسال وما كان صاحباً		دعوت بنارى موهناً فأتانى
فلما دنا قلت : ادن دونك إننى		وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أسوى الزاد بينى وبينه		على ضوء نار مرة ودخان
فقلت له لما تكشر ضـــاحكاً		وقائم سيفى من يدى بمكان :
تعش فإن واثقتنى لا تخوننى		نكن مثل من يا ذئب يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدر كنتما		أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا نبهت تلتمس القرى		أتاك بسهم أو شباة سنان

والغريب أن الفرزدق وضح فى لفظه وابتعد عن الإغراب فى مفرداته ، وهو

يقص حكاية الذئب ، ولعل ذلك كل ما يحمده له هؤلاء النقاد الذين يريدون سهولة التعبير فى العصر الأموى ، ولكنهم معنا فى أنه لم يصنع شيئاً فى الوصف كما صنع الأجداد .

وجرير بن عطية ، لا يختلف عن زميليه فى الوصف ، فقد وقف كذلك على الأطلال ، ووصف رحيل الأحبة وبكى الظعن ، ولكنه كان صورة للقدماء . ويفسر النقاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا فى الشعر الجاهلى تمثيلاً لماضيهم فأصبحوا يعتزون به ويشتدون فى روايته ومن ثم يسعون إلى تقاليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هى التى ساقت إليهم النصر وملكتهم زمام الفرس والروم ، لذلك تمسكوا بأهدابها وحنوا إليها ، وساعد على ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضى الجاهلى وعناية الخلفاء به وحبهم له ، فجهد الشعراء الأمويون فى أن يقلدوه إرضاء للعلماء والخلفاء ومن بيدهم سلطان الذوق الأدبى ، ومن ثم كان الجمود والوقوف عند معانى الجاهليين حيناً ، والتمسك بألفاظهم حيناً آخر ، فعادت الحياة الجاهلية ثانية إلى دنيا الأدب ، وحمل هذا اللواء القديم كبار الشعراء فى هذا العصر .

وسواء أصحت نظرية النقاد أم كانت فرضية تحتمل النقد ، فإننا نرى طبقة من الشعراء فى هذا العصر عادت إلى القديم وتغنت بشعره ، وزادت عليه فى غريب المفردات ، ونقصد بهذه الطبقة العجاج وابنه رؤبة فى الرجز ، وراعى الإبل وذا الرمة فى القصيد .

أما عبد الله بن رؤبة التيمى البصرى ، المعروف بالعجاج ، فقد وصف الأطلال فى أراجيزه ، وصور الحياة البدوية كما صورها القدماء ، فرسم الصحراء وسرابها وغيثها وبرقها وحيوانها ، وعرض للفرس والناقة وبقر الوحش والذئب والنمر والأسد والنسر والجراد والذباب والبعوض . . .

وهذه الأراجيز شديدة الأسر فى مفرداتها ، تغوص على الغريب حتى يخيل إلينا

أن الشاعر لم يغادر فى معاجم اللغة قافية إلا صادها . وأما معانيها فقديمة تقوم على التشخيص والتمثيل الحسى ، تتأثر امرأ القيس والمهلهل سواء فى وصف الليل وأهواله أم فى رسم الناقة وحمار الوحش وثور الوحش . والجديد فيها أنها أوردت المشتقات والجموع ومشاكلة الألفاظ ، كأن الرجل صنعها للغة لا للشعر ، لكثرة الإغراب فيها ، والتكلف فى سبكها والتصنع فى رصفها .

وابنه رؤبة بن العجاج ، سار بهذه الأراجيز سيرة أبيه حتى لقد بلغ بعضها أربعمائة قافية ، جعلها لأبواب الشعر كلها حتى مديح الخلفاء العباسيين ، فمزج بين الموضوعات ووازن بين الأشخاص والأنهار ، وفضل الممدوح على البحر أو النهر ، ووصف البادية فى سرابها ومفازتها ، وأطال فيها حتى هام بها اللغويون ، ففيها كل ما يريدون من غريب الأفعال والأسماء والمصادر . وهى على هذا تضم صوراً بارعة فى وصف الموضوعات ، لكن الوصول إلى معانيها يقتضى نبش المعاجم وفهم الصور . ولهذا أحبها الخلفاء وقربوا الشعراء لإجادتهم فى سبكها إحياء لماضى اللغة ومعانيها . وسنرى أن الشعراء هاموا بها حتى فى العصور العباسية فسعوا إلى تقليدها وضربوا فى ذلك بسهم كبير ، كأبى نواس وابن المعتز وأبى فراس الحمدانى .

وأبو مرقال الزفيان ، فعل ما فعله العجاج وابنه رؤبة ، ولكنه كان أسهل لفظاً ، وأقل إغراباً ، على أنه لم يصنع جديداً مبتكراً فى المعانى البدوية القديمة ، ولا نحب أن نروى من هذا الرجز ، فهو يحوجنا إلى شرح وعناء ، نحن عنه فى غناء لضيق الصفحات ، وإنما نحيل إلى « مجموع أشعار العرب » ، وقد طبعه فى صدر هذا القرن المستشرق أهلورت ، ففيه شفاء الغليل .

وأما راعى الإبل عبيد بن حصين النميرى ، فقد ظعن إلى البادية ووصف الإبل بأساليب القدماء ، ورسم حياة الرعاة ، فسمى بالراعى . وكان تصويره للإبل شبيهاً بصنيع القدماء فى ضخامتها وقوتها ، ولكنه أضاف إليها وصف الحادى والراعى

وتأليف القطيع . وعهدنا بالجاهليين أنهم يصفون الناقة بمفردها تسير ، فيشبهونها بحيوان الوحش ، ولكن الشاعر صور عادات البدو فى نحر الإبل والشجاعة تصويراً يخيل معه إلى السامع أن الشاعر مفتون بها كما يُفتن الغزلون بمعشوقاتهم ؛ وهو مع هذا لم يخل من إغراب فى اللفظ دفع اللغويين إلى جمع شعره والعناية به والتعلق بمفرداته .

والشاعر ذو الرمة هو الذى حمل لواء البادية كما قالوا، فاتجه إلى وصف الإبل وعاج حيناً على أوصاف القدماء فى رسمها كامرئ القيس وعنترة وزهير ، ثم برع فى وصف الطبيعة وألوانها ، فعمد إلى الدمن والأطلال والرياح والأمطار ، وهو حين يصف ناقته فى قصيدته المشهورة « ما بال عينك منها الماء ينسكب » يجعلها هزيلة تشكو الضعف والمرض والأوجاع ، ولكنها تسبق الإبل ولا يصيبها ونى ولا تعب ، وإنما تجرى كالريح العاتية وتثب كما يثب حمار الوحش حين يعدو كالمجنون أو الهارب بالإبل حين الغارة لعله يبلغ العين . فإذا بلغها وصف الضفادع والحيتان والصياد والصقر والحبارى والحمار الوحشى والثور والظليم .

هذا كله فى قصيدة واحدة ما نرى لها شبهاً فى أدبنا العربى قد جمعت أوصاف الحيوان وأنماط التشبيهات ، فكأنها متحف يغص بهذه الألوان الحية ، وقد أعجب بها الشعراء منذ القديم فتمنى جرير أن تنسب إليه ! ذلك لأنها مقسمة مرتبة مهذبة . وأكثر معانيها صورة للشعر الجاهلى ، لكنه نظمها من جديد وأجاد فى عرضها لتشمل شعر الطبيعة كله ، لعلها تغنى عن الدواوين مجتمعة ، ولا تغنى كلها عنها . فهو حامل لواء الوصف فى العصر الأموى ، وقد قال فيه ابن قتيبة : « إنه أوصف الناس لرمل وهاجرة وفلاة وماء » .

الفصل السادس

العصر العباسي

وصف الحيوان

النياق — الخيل — الأسد — الذئب — النحل — الكلب — الديك — الفهد — الصقر — السمك — البعوض — الطير — الهر والجرذان .

انتقل الحكم من دمشق إلى بغداد فاشتدت صلة الحكام بالفرس وحضارتهم وزاد اتصالهم بالتقاليد الأعجمية ، واصطبغت الطبقات الرفيعة فى الشعب بصباغ الحياة الجديدة ، وكان على الشعراء أن يسيروا مع هذا التيار الجديد فحسب ، لولا أن تياراً معاكساً راح ينحو نحو القديم يدفعه الحنين إلى أمجاد العرب ولغتهم ومغانيهم القديمة ، فظهر فى الأدب أنصار لهؤلاء وهؤلاء ، ودخل الوصف فى معمعان هذه المعركة بين القديم والجديد .

والواقع أن الشعراء أخذوا بالقديم والجديد معاً كأنهم يسعون إلى إرضاء الطائفتين ، فظلوا فى بعض الأبواب يقلدون ، وراحوا فى بعضها يجددون، بل هم حاولوا محاولات بارعة فأخفقوا حيناً وانتصروا حيناً . وسنعرض لوصف الحيوان عندهم لعلنا ننتهى إلى الموازنة بينه وبين ما كان عليه فى الشعر الجاهلى والأموى .

النياق

وقد رأينا وصف النياق والإبل والخيل على ألسنة الجاهليين والإسلاميين ،

يصفها الشعراء ، لأنهم عاشوا على مقربة من البادية، أو لأنهم أرادوا أن يشاركوا فى وصفها أو يبعثوا الحنين إلى ذكرها . فقال أبو نواس يصف ناقته :

ولقد تجوبُ بى الفلاة إذا صام النهارُ وقالت العُفْرُ(١)
شدنية رعت الحمى فأتت ملء الحزام كأنه قصرُ(٢)
تثنى على الحاذَيْن ذا خصل تعماله الشولان والخطرُ (٣)
أما إذا رفعْته سامدةً فتقول : رنق فوقها نسرُ(٤)
أما إذا وضعته عارضة فتقول : أرخى خلفها سترُ
وتسفّ أحياناً فتحسبها مترسماً يقتاده أثر(٥)

فهذه الناقة تجوب به الفلاة فى الظهيرة وقد اعتدل النهار واستراحت الظباء فى القيلولة ، وهى قوية متينة ، تحرّك ذنبها فتصيب فخذيها ، فكأنه نسر إذا رفعته جادة فى السير ، أو كأنه ستر إذا أرخته . وتدنو من الأرض فكأنها تبحث فى الرسوم عن أثر . وناقة أبى نواس هذه كناقة الجاهليين فى ضخامتها وطول ذنبها وقوّتها ، وفى غرابة مفرداتها ، ولو تركت من غير نسبة إلى شاعر معين لذهب الظن إلى أنها قيلت فى العصر الجاهلى أو الإسلامى .

ووصف مسلم بن الوليد ناقته سريعة قوّية تضرب بذنبها يميناً وشمالا ، وتسرع فى إرقالها وو خدها . ووصفها ابن المعتز فرأى فيها ما يرى الجاهليون فقال :

رأيتُ انهمار الدرّ بين فروجها كما عصرتْ أيدى الغواسل أثوابا
كأنّ على حلابهنّ سحائباً تجود من الأخلاف سحاً وتسكابا

---

(١) صام النهار : اعتدل — قالت : استراحت — العفر : الظباء .
(٢) شدنية : منسوبة إلى شدن : فحل باليمن أو موضع فيه — الحمى : موضع الكلأ .
(٣) الحاذين : تثنية حاذ ، وهو جانب الفخذ — الشولان : رفع الناقة ذنبها — الخطر : رفعها إياه مرة بعد أخرى وضربها به حاذيها .
(٤) سامدة : جادة فى سيرها — رنق : حام ورفرف للوقوع .
(٥) تسف : تدنو من الأرض — المترسم : الناظر إلى رسوم الدار .

خوازن نحض فى الجلود كأنما تحمل كثباناً من الرمل أصلابا

فهى قوية ضخمة يسيل الدرّ بين فروجها كما يسيل الماء من الثوب على أيدى الغواسل ، وهى مكتنزة اللحم . كأنّ فى الجلد كثباناً من الرمل ، وقديماً أحبّ العرب النياق الضخمة المكتنزة .

ووصفها فى موضع آخر فأعاد معانى القدماء وصورهم قال :

حتى طويت على أحشاه ناجية كأنما خلقها تشييد بنيانِ
كأن أخفافَها والسير ينقلها دلاءُ بئر تدلت بين أشطانِ
لها زمام إذا أبصرت جولته حسبتُ فى قبضتى أثناء ثعبان
إلى هلال تجلت عنه ليلته باريه صوّرهُ فى خلق إنسان

فجعلها ترتع فى مفازة بعيدة ، وهى وثيقة التكوين ضخمة الجسم كأنها بنيان مشيد ، وكأن أخفافها دلاء بئر تدلت بين الحبال . وهذه الصور جاهلية صرفٌ تعلّق بها ابن المعتز فكان شديد الشبه بالأجداد ، وكان شبيهاً بزملائه فى العصر العباسى إذ لم يخرجوا عن حدود القدماء فى وصف الناقة .

الخيل

وصف العباسيون الخيل فأوغلوا فى رسمها كذلك ، وأبو نواس جعلها مطية إلى الصيد ليس غير . وأما أبو تمام فقد أكثر من وصفها فجعلها شديدة الحركة والطيش كأنما خالطها مسٌّ من جنون، أو كأنها شربت خمراً فهى سكرى :

كـأنمـا خـامره أولقٌ أو غازلت هامته الخندريس[1]
عـوّذه الحاسد بخلاّبه ورفرفت خوفاً عليه النفوس

فهو يحبه ويعوذه خوف الحسد ، ويرى أن النفوس تميل إليه لجماله . ورسم فى مكان آخر اختيال الفرس وجعله ملآن بالصلف والكبر ، ووصف حوافره

(١) أولق : جنون – الخندريس : الخمر العتيقة .

وصلبه وناصيته . ولونه بالحمرة قد بدا فيها الشيب ، وهو طائش مجنون نشيط ، وبعضه أسود كالدجى وبعضه أبيض كثوب الحرير الفارسى ، قد سالت غرته كما سال الماء :

قد سالت الأوضاحُ سيل قرارة   فيه فمفترقٌ عليه وملتق (١)
صافى الأديم كأنما ألبسته   من سندس برداً ومن إستبرق (٢)

وبعد هذه السرعة التى تفوق الريح فى جريانها ، يرسم الشاعر غرة الفرس وأذنه ثم كفله الململم وذنبه الضافى . وصور منخره كالكير ، يخوض الوغى فى حلة حمراء ، ويسبح فى غمرة الموت ورحى المنية تطحن .

ووصفه الشاعر فى ديوانه كذلك فقال : بأن الحصى تطير من تحته لسرعته ذا ما حثه السوط . ورسم بلجمه الحديدية يلوكها كما تلوك الفتاة مساوكها ، ويتبختر كأنه يمشى بكمٍّ مسبل ، محجل فى قوائمه غير اليمين .

والبحترى وصف الخيل فأبدع فى تعداد سماتها وشياتها . قال إن جواده جارى الجياد فطار سبقاً ، جذلان تلطمه غرّة كأنها البدر فى تمامه ، وأذناه متقدمتان كأنهما عينان يرى بهما . يختال ويكب ويشب ، طويل العنان والحزام ، معاطفه لينة كأنها الخيزران ، وفى غرته بياض كأنه الشيب فى مفرق رجل لاه عابث غزل . وأما صهلته فكأنها الرعد فى ازدحام الغمام ، فالعجائب تقسمت محاسنه .

ورسمه فى قصيدة أخرى فجعله كالهيكل فى ضخامته ، يهوى فى سرعته كما تهوى العقاب حين ترى صيداً ، وينتصب كالصقر ، تحسب البدر فى جبينه ، وذنبه طويل يسحبه كالرداء ، صافى الجلد كصفاء السيوف فى حمرة كخمر معتقة . وصهيله كالموسيقا بل يفوق نبرات المغنين المشهورين . وهو جذلان ينفض خصلة الشعر فى غرته ، وشجاع يغشى الوغى فلا يحوج إلى جنة أو ترس ، ليس

(١) الوضح : الغرة — القرارة : القاع المستدير يجمع فيه ماء المطر .
(٢) السندس : ضرب من نسيج البز أو من رقيق الديباج — الإستبرق : الديباج الغليظ .

له مقتل ، وإنما يقتل حيث يصيب . وجسده فى لونه كأنه نمال متتابعة سوداء وحمراء :

مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل
وإذا أصاب فكل شىء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

وهو فى قصيدة ثالثة : أشقر ساطع يغشى ظلمات الحرب فينيرها كالكوكب المتأجج ، وشياته كأنها مطلية بالدماء القانية ، يهيجه السوط كما تهيج ريح الجنوب حريق النبت ، جذلان أبداً ، تحسده الجياد إذا مشى ، دقيق الخصر ضامر البطن ، عالى المتن وقوائمه وثيقة .

وهذه الصور تتلخص فى سرعة الفرس وطيشه ، ولون جلده ، وغرته ، وضخامته ، وذنبه الطويل ، ودقة خصره ، وضمور بطنه ، وعلو متنه . وهى لا تزيد على ما عند الجاهليين فيما رأينا من وصف الخيل ، بل إن الجاهليين سبقوا فى هذا الميدان ، ولم يصنع المتأخرون كبير أمر ، إلا فى وصف الصلف والكبر .

الأسد

أصبح الأسد فى العصر العباسى موضوعاً للّهو والصيد والرياضة ، وشارك الخلفاء والأمراء فى ذلك ، وروّضوا خيولهم على لقائه رابطة الجأش ، فجعلوها تعيش إلى جانب قفصه ومرّنوها على رؤيته كل يوم . وقد وصف الشعراء حفلات الصيد هذه ، ورسموا صوراً مختلفة للأسد .

أما البحترى فقد ذكر الفتحَ بن خاقان وخروجه إلى صيد الأسد فقال :

غداة لقيتَ الليثَ والليثُ مخدرٌ يحدّد ناباً للّقاء ومخلبـا
يحصّنه من نهر نيزك معقل منيعٌ تسامى روضُه وتأشبا(١)

(١) تأشب الروض : تجمع والتف بعضه على بعض .

إذا شاء غادى عانة أو غدا على ... عقائل سرب أو تقنص ربربا (١)
يجرّ إلى أشباله كلّ شارق ... عبيطاً مدمى أو رميلا مخضبا (٢)
شهدتُ لقد أنصفته يوم تنبرى ... له مصلتا عضباً من البيض مغضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً إذا الهيّابة النكس كذبا (٣)
هزبر مشى يبغى هزبراً وأغلبٌ ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا (٤)

أقبل الفتح بن خاقان على الأسد ، فرآه فى معقل حصين وفى قوة منيعة يستطيع أن يفترس حمار الوحش أو بقر الوحش . فهو فى كل يوم يقدّم إلى أشباله صيداً جديداً ، ولحماً طريئاً يسحبه على الرمل فيمتزج بالتراب . وليس فى هذه الصورة من الأسد إلاّ بطولته وافتراسه . لم نلمح فيها شيئاً من أعضائه أو أجزائه ، ولعله قد جعلها ليوازن بين ضرغامين : ممدوحه « الفتح » والأسد المقصود ، فرأى أنهما قد مشى أحدهما إلى الآخر فى شجاعة وبطولة مشى الند للند .

وابن المعتز حين وصف الأسد فعل مثل ذلك ، فصوّره مخيفاً يهزم الجيش ويجرّ كل ليلة فريسة إلى أولاده يفرحون بها ، وهو شجاع جرىء يحسب الألف واحداً ، يُرهب الدنيا زئيره فما يستطيع أحد أن يعدو على الأرض أو يسرى فيها إذا كان هناك :

يزعزع أحشاءَ البلاد زئيره ... ويذهل أبطال الرجال من الذعر
إذا ضمّ قرناً بين كفيه خلته ... يعانى عروساً فى غلائلها الحمر

وهذا جميل فى وصف الحيوان وفريسته كعراك العرس والزوج فى غلائلها الحمر
والمتنبى وصف أسداً قتله بدر بن عمار فرسم لونه الأحمر ، وصوّر زئيره

---

(١) العانة : الأتان أو القطيع من حمر الوحش — العقائل : ج عقيلة وهى أكرم كل شىء — السرب : القطيع من الظباء وحمر الوحش — الربرب : قطيع بقر الوحش .
(٢) كل شارق : أى كل مطلع شمس — العبيط : اللحم الطرىء — الرميل : ما خلط بالرمل
(٣) الضرغام : الأسد — الهيابة : الجبان — النكس : الرذل .
(٤) الهزبر : الأسد القوى — باسل الوجه : شديد العبوس .

يبلغ النيل والفرات وعيناه كنار جماعة من الناس ، يعيش وحده عيش الرهبان، لكنه لا يعرف التحليل والتحريم ، فإذا سار وطئ الثرى تيهاً وصلفاً كأنه طبيب يجس يد العليل فى رفق :

يطأ البرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا (١)
ويرد عفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلا (٢)
وتظنه مما يزمجر نفسه عنها لشدة غيظه مشغولا (٣)

وهذا الشعر المتجمع على قفا الأسد يصير حول هامته إذا سار وانتصب فكأنه ملك الغابة قد حلى رأسه بالتاج ، وهو لشدة صوته تظنه نفسه كأنه مشغول عنها . وهذه الصورة فيما نرى أبرع ما رسم الأدب العربى للأسد فى لونه وعينيه ومشيته وزئيره وزمجرته ، وشعره وهامته ؛ فهى على إرهابها حسية مادية تتجاوب مع رهبة الألفاظ وقوة التعبير .

أما ابن الرومى فقد وصف أسده بأنه غليظ كريه ، وأذنه ماثلة كنصف هلال ، تخضع له الأسود حين يزمجر ، ضخم شديد ، رحب الصدر ، ذو كاهل أوبر قوى الظهر مكتنز اللحم ، وحيد فى الفلاة مخوف ، وفى ذلك براعة وإيجاز .

الذئب

وصف البحترى ذئباً لقيه فى الفلاة فرسم لونه الأسود المغبر وعظامه المقضقضة ومتنه المقوس ، وذنبه كالحبل يجره وراءه ، قد طواه الجوع فلم يبق فيه إلا العظم والجلد والروح . تصوت أنيابه وفيها الموت كما يفعل المقرور حين يرعده البرد . وكان فى الظن أن يرهب الشاعر هذا الذئب الجائع ، ولكنه وقف له كأنهما

---

(١) البرى : التراب — التيه : العجب — الآسى : الطبيب .
(٢) الغفرة : الشعر اجتمع على قفاه — اليافوخ : الرأس — الإكليل : التاج على رأس الملوك .
(٣) الزمجرة : تردد الصوت وشدة الصياح .

ذئبان ، كلٌّ يحدِّث نفسه بصاحبه . فلما عوى الذئب أرسل سهمه إليه فأورده منهل الردى :

سما لى وبى من شدة الجوع ما به ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجدّ يتعسه الجدُّ

وقد أرانا البحترى فى هذه الصورة لون الذئب وعظامه ورهبته وأسمعنا صوته كالرعد ، ثم قتله ، وفيها يتفوق على ما رسم الفرزدق لذئبه ، ويشبه رسم الشنفرى فى وصف اللّون والجوع والهزال ، ولكن البحترى صور عظامه ومتنه وصوت أنيابه فزاد فى الهول والرعب . والشريف الرضىّ لا يخرج فى تصويره الذئب عن هذه الأوصاف والحدود .

* * *

وقد وصف الشعراء العباسيون حيوانات أخرى كانوا يرونها خلال الصيد أو تقع لهم فى الرحلة والأسفار البعيدة ؛ فقد دخل الترف فى حياة الشعب الإسلامى وأصبح يخلو إلى صيد البر والبحر ، فيسافر أو يجرى وراء الظباء والثعالب والأرانب ويقصد إلى الآجام فى صيد الكواسر والأسود ، ويسعى إلى الأنهار ليصيد السمك وطيور الماء ، واشترك الشعراء فى هذه الرحلات أو فى هذا الصيد ، وأرادوا أن يشاركوا فى وصفها فكانت لهم صور فى أدبنا تدعو إلى الدراسة والنقد ، سنعرض لبعضها هنا لأننا لن نستطيع الإلمام بها جميعاً فذلك باب واسع من أبواب الأدب ، تضخم خلال القرن الرابع حتى ما يستوعب ولا يحصى .

النحل

عاش أبو نواس مع الطبيعة وسكر بمحاسنها وشرب فى كل مكان ، فقصد إلى الصيد والطرد والشرب ، وتغنى بما رأى وخلّف لنا لوحات بارعة خلال خمرياته غزله نجد فيها صورة للحيوان لم نعهدها من قبل . فقد رسم النحل فى صورة

لطيفة تغدو وتجيء وتجمع العسل من الأزهار قال :

ترعى أزاهير غيطان وأودية ... وتشرب الصفو من غدر وأحساء
فطسُ الأنوف مقاريف مشمّرة ... خُوص العيون بريئات من الداء[1]
من مقرب عشراء ذات زمزمة ... وعائذ متبع منها وعذراء[2]
تغدو وترجع ليلا عن مساربها ... إلى ملوك ذوى عز وأحياء[3]
كل بمعقله يُمضى حكومته ... فى حزبه بجميل القول والرّاء
حتى إذا اصطلك من بنيانها قرص ... أرويتها عسلا من بعد إصداء[4]

فالنحل ترعى أزاهير الغيطان والأودية وتشرب الصافى من الغدران ، وهى فطس الأنوف بشعة الوجوه غائرة العيون ولكنها سليمة من الداء ، فيها الحبلى وفيها ما ولد منذ قليل وفيها ما يتبعها ولدها وفيها العذارى . وهذه المملكة كل حكومة فيها تعمل برأى وقول ، ولكنها مع ذلك تبنى مجتمعة قرصاً من العسل تقدمه شهداً حلواً للناس . وهذه الصورة بارعة فى الديمقراطية وبناء الممالك لا تشبهها صورة فى الآداب الأخرى .

الكلب

ووصف أبو نواس كلب الصيد ، فصوّره تصويراً مفصّلا لم نعهده عند الجاهليين ، فقد رأينا أنهم يسمعوننا نباحه وهجومه وتضحيته القاسية حين يموت فى فكى الطريدة ؛ ولكن الشاعر العباسى يصف عيشه فى بيت سيده وقد أنس إليه ، ويرسم من أجزائه ما وصف الشعر الجاهلى من الخيل والنياق ، قال أبو نواس .

(١) مقاريف : غير حسان الوجوه — خوص العيون : غائراتها .
(٢) المقرب : التى قرب ولادها — العائذ : الحديثة النتاج من الظباء — المتبع : ما يتبعها ولدها .
(٣) المسارب : المراعى .
(٤) اصطلك : تم وكمل — القرص : ج قرصة وهى فى الأصل القطعة من العجين .

أنعتُ كلباً أهلُه فى كدّه   قد سعدتْ جدودهم بجده
وكل خير عندهم من عنده   يظلّ مولاه له كعبده
يبيت أدنى صاحب من مهده   وإن غدا جللّه ببرده
ذا غرة محجلا بزنده   تلذ منه العين حسن قدّه
تأخير شدقيه وطول خدّه   تلقى الظباء عنتاً من طرده

فهو حبيب لسيده أثير عنده بفضل سعيه وكده ، يبيت أقرب الناس إلى مهده فإن أصابه برد جلله ، وهو ذو غرة محجل بزنده ، يلذ الرائى حسن قدّه ، فشدقاه عريضان وخدّه طويل ، وهو شديد على الظباء فى الطراد . وهذه الصورة جميلة تصف جسم الكلب وأعضاءه وعمله فى الصيد فتعيد إلى الذاكرة وصف الشعراء الجاهليين للخيل وعنايتهم بها وحبهم لها .

الديك

ووصف أبو نواس كثيراً من الديكة ، فأحسن فى وصفها لما كانت تهيجه فى الصباح إلى الصبوح وتدفعه إلى الشرب وتنبهه إلى طلوع النهار ؛ فقال :

أنعتُ ديكاً من ديوك الهند   أحسن من طاووس قصر «المهدى»
أشجع من عادى عرين الأسد   ترى الدجاج حوله كالجند
يقعين من خيفته لسفد   له سُقاع كدوى الرعد(١)
منقاره كالمعول المحد   يقهر من ناقره بالنقد(٢)
عيناه منه فى القفا والخد   ذو هامة وعنق كالوردْ
له اعتدال وانتصاب قدّ   كأنه الهداب فى الفرند(٣)

---

(١) السفد : نزو الذكر على الأنثى — سقاع : صوت .
(٢) النقد : ضرب الطائر بمنقاره .
(٣) الهداب : الطرف مما يلى طرته — الفرند . السيف .

فهذا الديك الهندى جميل شجاع ، يقف فى الدجاج كما يقف الملك فى رعيته[1] ، منقاره كالمعول يقهر به خصمه ، وهامته وعنقه كالورد الأحمر ، وأما قامته واعتداله فكأنهما السيف المستقيم ، وصوته كدوى الرعد، شديد الهيبة مطاع .

الفهد

وابن المعتز ، جاراه فى أكثر أوصافه للصيد ، فصوّر الفهد وكان يقوم عندهم مقام الكلب فقال :

ولا صيد إ بوثّابة تطير على أربع كالعَذَب
وإن أطلقت من قلاداتها وطار الغبار وجدّ الطلب
فزوبعة من بنات الرياح تريك على الأرض شدا عجب
تضم الطريد إلى نحرها كضمّ المحب لمن قد أحبّ

وهكذا ترى أنه أسبغ على الفهد صورة حبيبة تصف حبه لهذا الحيوان وفرحه فى الصيد بما يصطاد ، وسرعته فى اللحاق بالطريدة كأنه يطير على أربع فيثير الغبار كزوبعة من بنات الرياح . وحين يعود الفهد منتصراً يضم الطريدة إلى نحره كما يضم المحب حبيبته . وهذا تصوير بارع لابن المعتز لا تنقصه الحياة ولا يتخلف عنه النشاط والحركة .

الصقر

ووصف ابن المعتز الصقر فقال :

---

(١) صور الصنوبرى ديكه بصورة قريبة من هذه فجعله عقيد الملك من نسب كسرى وقد عقد على رأسه التاج ، يلبس المطرف ويرخى الذوائب .

وأجدل لم يخلُ من تأديب يرى بعيد الشيء كالقريب[١]
يهوى هُويّ الدّلو فى القليب بناظر مستعجم مغلوب[٢]
كناظر الأقبل ذى التقطيب رأى أوزاً فى ثرى رطيب[٣]
فطار كالمستوهل المرعوبِ ينفذ فى الشمال والجنوب[٤]

فاستخدم الصور الجاهلية القديمة فى سرعة الصقر إذ شبهه بهويّ الدلو فى البئر أو نظر الأحول إلى الأوز حين يطير إليها كالمرعوب . وعمد إلى الرجز واللفظ البسيط .

ورسم الشاعر كذلك صيد السمك ، فوصف الجدول والحصى والزهر والشبكة والشصّ ، فرأى النهر فضياً والحصى نقيا والتربة ذات ثرى وضىّ ، والزهر مبتسما . وقد اصطاد السمك بشبكة لها مقلة تلحق بالقصىّ من الحيوان . وقلده فى ذلك السرىّ الرفاء .

البعوض

ووصف ابن المعتز البعوض ، فتحدّث عن أثره فى جسده فقال :

بتُّ بجهد لا أذوق الغمضا مسهداً يضرب بعضى بعضاً
قد قطع القرقس جلدى عضا منتهشا بقرسه منقضا[٥]
كشرر القدح إذا ما ارفضا يدمن إسخاطك حتى ترضى

ولا تمالك من الضحك حين تتصور المسهّد يضرب بعضه بعضاً ، وحين

(١) الأجدل : الصقر .
(٢) القليب : البئر — الناظر المستعجم : الذى ينظر إلى الشيء كأنه يعرفه .
(٣) القبل : الحول فى العين .
(٤) المستوهل : الفزع .
(٥) القرقس : البعوض . — القرس بكسر القاف : صغار البعوض .

يقطع البعوض جلد النائم عضاً وينقض كشرر القدح . ولكن هذا الضحك مؤلم لأنه يصور أكثر ليالى الشرق فى الريف خلال الصيف .

الطير

وابن الرومى وصف الطير شرّعاً على حوض المنية ، وأصدقاؤه الصيادون يهمون بصيده ضاحكين هازلين معهم آلاتهم وقسيهم ، والطبيعة تبكى لمصرع هذا الحيوان وما ينتظره على أيدى الصيادين فيقول :

فظل صحابى ناعمين ببؤسها وظلت على حوض المنية شرّعاً
وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورساً مزعزعاً
وودّعت الدنيا لتقضى نحبها وشوّل باقى عمرها فتشعشعا

ونحن نرى فى صورة الطبيعة والصيادين رسماً بديعاً مؤثراً أعاره ابن الرومى من نفسيته وحزنه وحبه للحيوان وشعوره الرقيق حياله .

وقد وصف الصابى الببغاء محبوسة فى القفص كالغادة العذراء وما لها من ذنب فى هذا الحبس إلا أنها ضحية الحب ، قد تميزت بالبيان عن كل مخلوق سوى الإنسان . ورسم السنجاب فجعله خفيفاً على النفوس تشتهى قربه العيون كأنه أخو الشباب .

وصوّر الصنوبرىّ الورشان ، ذلك الطائر المغرد ، الذى يودع المسامع ما شاءت وما لم تشأ من الألحان ، فجعله فى رداء من سوسن وقميص مزرّر فى ظهره يبدو فى لون السماء ، وجيده فى لون الفرقدين ، وهو يدعو الصبح لأنه يملّ الكرى فيمدّ صوته حين يمدّ جيده . ورسم القمرى فى لون الغمامة يستغنى بهديله فى غسق الدجى عن مطرب الأوتار .

الهر والجرذان :

ولم يغفل الصنوبرى عن الهر والجرذان ، فقال بأن الجرذان خلقت منذ الأزل للعبث والفساد والأذى والخراب تنقب فى الأرض والسقف والحائط وتأكل كل شىء وتشرب كل ما ترى وتقرض الثياب . أما الهرّ فهو ليث الغاب كالقنفذ فى ازبراره وكالذئب فى افتراسه والحية فى انسيابه ، ينصب طرفه أبداً قبل الزوايا وإزاء السقوف والأبواب ، ينتضى ظفره فى حربه :

يسحبُ الصيد فى أقل من اللمـ ـح ولو كان صيده فى السحاب
غاسل وجهه بإحدى يديه مستعين فى غسله باللعاب
ويعى الصوت إذ يعى فى طوىّ وهو يرنو إذا رنا من شهابِ

ولهذا الهر قرطق وقلادة وخضاب ، كما نرى للهرة فى عصرنا بالبيوت العربية ، وهو صاحب بل أعزّ الأصحاب وأوفى الأحباب .

وهناك حيوانات أخرى وصفها شعراؤنا ، فقد رسم أبو نواس فى ديوانه الثعلب والبازى والعنكبوت ، وصوّر غيره الذباب والبغال والحمير والضفادع ، وللحية فى ديوان ابن المعتز وصف لطيف شبهها فيه بالغصن يعلوه نور وورق ، ولكننا لن نعرض لها هنا ، لضيق الصفحات ، مكتفين بما أوردنا من صور رسمها هؤلاء النوابغ فأبدعوا حتى لكأنهم يرسمون بالريشة والألوان ألواحاً لو عرضت فى متاحف العالم لحازت السبق وربحت الخلود .

ونحن حين نوازن بينهم وبين أجدادهم نجد أنهم اتخذوا أول الأمر صور الجاهليين سنناً يسيرون عليه ، ثم أفاضوا فى الاختراع والابتداع ، فالتمسوا ألوانهم من حضارة الفرس وحياتهم الجديدة ، فجمعوا ثروة القديم إلى ثقافتهم المكتسبة ، وبلغوا ذروة وقف عندها الوصف فقصرت بعدهم أجنحة الشعراء فى التحليق حيناً من زمن ليس بالقصير .

الفصل السابع

العصر العباسى

وصف الطبيعة الميتة

السحاب والمطر – الأنهار والبرك – السفن – الأزهار والثمار – الرياض – الليل والأفلاك – الأطلال – القصور والأبنية – المآكل والأطعمة – مرافق البيت

ألم العباسيون بالبساتين والرياض ، فعاشوا فى هذه الطبيعة الجميلة ، ينعمون بالزهر والنور ، وينظرون إلى السماء ، وأفلاكها ، والأنهار والبرك والقصور المشيدة ، والسفن ومرافق العيش الجديدة ، فكانت حياة ناعمة مترفة لكثير من طبقات الأمة ، وذهب الشعراء مذاهب بعيدة فى وصف هذا الكون الجديد ، واستطاع بعضهم أن يحلق بجناحين فى آفاق حديثة ، وقعدت ببعضهم أجنحة الشعر عن التحليق ، فلبث يردد صور القدماء وألفاظهم ، وسنعرض هنا نماذج لهذا الشعر الذى انطلق منذ فجر العباسيين حتى وقف الاختراع والابتداع ، وأصبحت همة الشاعر فى أن يجتر وأن يعيد وأن يقلد .

السحاب والمطر

نظر الشعراء فى هذا العصر إلى السحاب كما نظر القدماء فرأوا فيه قاتل المحل وجالب الخير والغيث والنعمة . والشرق العربى كله ما يزال ينظر اليوم إلى المطر والسحاب نظر القدماء فيرى فيهما قتلا للجدب وسبباً للخصب .

قال أبو تمام يصف ديمة إنها سمحة القياد سكوب ، يستغيث بها الثرى المكروب . ووصف السحاب فى مكان آخر فقال إن الدنيا صاحت : لقد أتى قاتل المحل ، وارتدى الروض بالبقل ، وانطوت بطون الأرض على حمل . فاهتزت ارتياحاً لرقعه كما تهتز البكر للبعل .

ورأى ابن الرومى فى السحائب غطاء للأغوار والنجود أقبلت تتهادى فى سيرها فرأت الأرض فيها حياة بعد همود وغيثاً بعد إمحال ، وقال الناس هذه فتوح السماء قد ظهرت لتطفىء الغليل . وفى قصيدة ثانية قال الشاعر :

إن هذه السحب يرسلها سائقها كيفما يشاء فتجود بدرّها ، وتنبجس الأرض وينشق الأديم فتقضى حقوق القيعان وبعد عقوق ، وتجرى المياه فوق الربى والوهاد ، وحينئذ يتضاحك الروض الكئيب ويتفق الزهر والنور ، ويتنسم الخلق النفحات ويضوع المسك ، ولا يرد الطير فى كل مكان كأنه طرب مشوق يتعلل بالغناء .

والبحترى أجاد فى وصف السحابة والبرق فرسمهما رسماً موفقاً حين قال :

ذات ارتجاز كحنين الرعد　　مجرورة الذيل صدوق الوعدِ
مسفوحة الدمع بغير وجد　　لها نسيم كنسيم الوردِ
ورنة مثــل زئير الأسد　　ولمع برق كسيوف الهند
جاءت بها ريح الصبا من نجد　　فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد　　من وشى أنوار الربى فى بُرد
كأنما غدرانها فى الوهد　　يلعبن من حبابها بالنردِ

ففيها الرعد وصدق الوعد ، وهى تبكى بدمع مسفوح بغير وجد ، ونعيمها كنسيم الورد ، وزئيرها كزئير الأسد ولمعها كسيوف الهند ، وقد حملتها ريح الصبا من بعيد فانتثرت كما ينتثر العقد ، فأنعشت الأرض بالنور والزهر وأصبحت الغدران منها يرقصن بالحباب كما يلعب بالنرد . وهذه أوصاف حسية شبه كل

شيء منها بشيء يضارعه ثم كساها عاطفة الحنين والدمع والوجد وجعلها للخير والبركة والعيش الرغد . ولكنه لم يصف شكلها وضبابها ، والرسوم التي تنشأ فيها ، وإنما رسم تأثيرها في الأرض وخدمتها للدنيا فقلد القدماء وجمع فيها كل ما قالوا في مثل هذا الموضوع ، ولكنه أفاض في التشبيهات وزاد في رقة اللفظ فجاءت عبارته تغنّى غناء كما قال النقاد في شعره كله .

وأما ابن المعتز فقد حسب أن السحائب لا تمل البكاء ، وأن دموعها تجرى في خدود الثرى ، يقدح منها البرق كالسيوف الهندية ، فإذا دنت من الأرض جلجل الرعد أجش كصوت الرّحا ، ثم سحّت فارتدت الأرض بالنور والزهر ، وشبّ النبات واكتهل . وفي قصيدة أخرى ، قال الشاعر إن البرق يضحك فيها فتتصل الأرض بالسماء كما تتصل الخيم بالحبال ، فكأن رعدها مستعبر يبكى في صخب ، وهي أبداً مثقلة بالماء تتهادى فوق أعناق الرياح ، ينفتح بها النور وينتشر بها العطر .

وقد وصف الشعراء البرق بمثل طرف العين في سرعته أو الشهب في هبوطه أو كأنه حية تصدّعت أحشاؤها — كما قال ابن المعتز — أو كأنه سيوف لمعت لكنها تفعل في الأرض فعل الوجد بأحشاء الحزين . وأبو تمام يرى البرق يتحول إلى ماء وهو نار ، يرضى الثرى ويسخط الغبار ، ويرى البحترى سرى البرق البرق كنبض العرق ، وابن المعتز يجد أن البرق يشقق السحاب كما يصدع المشرفي هامات الرجال ، أوكأنه سنا قبس في جذوة من نار .

الأنهار والبرك

وما دمنا قد عرضنا للسحاب والمطر فسنعرض للجداول والأنهار والبحيرات مما وصفه هؤلاء الشعراء ؛ فقد وصف ابن المعتز دجلة عند الفيضان فرآه كالبحر تخر لفيضانه الجدران كأنها تسجد أو تركع ، والسقوف تمطر والأرض أعين

تنبع ، والبستان فجوة يسبح فى مائها الضفدع . ووصف شاعرنا بركة غناء تموج فيها الماء ،كأنها فى الدجى مرآة قد انصقلت ومقبضها الخليج .

ووصف البحترى بركة المتوكل كأنها واحدة فى الدنيا يليها البحر فى العظمة، وهى تنافس دجلة فى الحسن وتباهيه كأن جنّ سليمان أبدعوها ، فلو أن بلقيس مرت بها عرضاً لقالت إنها الصرح تمثيلا وتشبيهاً ، تنصب فيها دفقات الماء كالخيل تخرج من حبال مجريها أو كأنها الفضة البيضاء سائلة من السبائك ، فإذا مرّت الريح أبدت فوقها صوراً كالدروع مصقولة الحواشى ، وإذا انعكست فيها النجوم حسبتها سماء ركبت فيها النجوم ، تغوص الأسماك فيها وتغيب ، وتحفها الرياض كريش الطاوس فى تلوينها وزينتها :

فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ورّيق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ليلا حسبتَ سماء ركبت فيها

ووصف المتنبي بحيرة طبرّية فصور الموج مُزبداً والطيور فوق حبابها كفرسان بلق تخونها الاجم ، فحين تضربها الرياح تحسب أن بها جيشين يتحاربان أحدهما هازم والآخر منهزم . ووصف أبو فواس الماء والبرك فقال :

انظر إلى زهر الربيع والماء فى برك البديع
وإذا الرياح جرت علي ه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا ئح بيننا حلق الدروع

فشبه صفحة البركة — كما فعل البحترى — بالدرع وحلقه تبدو كالموج الضعيف حين تهب عليه الرياح مقبلة مدبرة .

وأكثر الشعراء وصفاً للنهر فى هذا العصر هو الصنوبرىّ ، إذ رسم نهر « قويق » فى حلب عدداً من المرات فى شعره ، هجاهُ وسخر منه فقال :

« قويق » إذا شم ريح الشتا ء أظهر تيهاً وكبراً عجيبا
وناسب دجلة والنيل والـ فرات بهاء وحسناً وطيبا

وإن أقبل الصيف أبصرتــه ذليــلا حقــيراً حزينــاً كئيبا
إذا ما الضفادع نادينــه قويق قويق! أبى أن يجيبا !
تغوص الجــرادة فى قعــره وتأبى قوائمــها أن تغيبا!

فهو يصف النهر فى الشتاء على كبر وتيه كأنه يفاخر دجلة والفرات والنيل لكثرة ما ينصب فيه من سيول وأمطار ، ولكن الصيف يكشفه فيبدو ذليلا حقيراً كئيباً تناديه الضفادع فلا يجيب وتغوص الجرادة فى قعره فلا تغيب ، وهذه صورة جميلة فى هجاء النهر . وله فى البركة والفوارة صورة مليحة مستحسنة نرويها هنا :

وبركة منظرهــا يطربُ للماء فيــه ألسن تعرب
تحسبها من طول ترجيعها دائمــة تنشد أو تخطب
كأن فواراتهــا وسطهــا إذا ترامت لعبٌ تلعب
من يمنة فيهــا ومن يسرة قنطــرة واقفــة تذهب

فالفوارة خطيبة متكلمة تنشد أو تغنى أو كأنها تلعب ، بل هى قنطرة تقف وتنتقل .

السفينة

ورسم الشعراء ما كان يجرى على الماء من سفن كثرت لوفرة الأنهار ، فسالت فيها كما تسيل السيارات اليوم فى دروبنا ، وكان هذا الرسم شبيهاً بصور القدماء لما يسبح على الرمل من هوادج . وبشار يقول إن تيار البحور يتلاعب بالسفينة ، وربما رأيت نفوس القوم تجرى من جريها لرعبهم بتمايلها . وصورها مسلم بن الوليد كما يصور الجاهليون طبقات الرمل، بل جعلها تسير من الإشفاق فى جبل وعر تنثنى وتختلج ومجذافاها يسوقانها كجناحين ، فهى كالعقاب

تدلت من هواء على وكر ، وحين تواجه الصبا تمشى متمايلة كمشى العروس إلى الخدر .

وابن الرومى شبهها بالنسور فى أجنحتها الخفاقة وخراطمها تطير على أقفائها وظهورها بمصطخب التيار ، فسيرها يشبه النعائم إذا تمهلت . وأما أبو نواس فقد وصف سفينة كانت للأمين فى صورة الأسد ، كما كان له غيرها فى صورة العقاب والفرس فقال :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سرن برّا سار فى الماء راكباً ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشدق كالح الأنياب (١)
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذا رأوه على صو رة ليث يمرّ مرّ السحاب

فهى لا تسير بلجام بل تجرى بغير سوط ومن دون أن يغمزها الراكب برجليه فتمر مر السحاب فلم يخرج عن وصف القدماء للمطايا ، وإنما فضلها عليهن إذ رسمها تجرى على الماء وتلك تضرب فى الرمل .

ووصف البحترى السفينة فقال : إن فرعون ظن أنه إله النيل ولكنه لو رأى ما يركب المعتز لرأى قصراً على الماء يسبح :

إذاً لرأى قصراً على ظهر لجة يروح ويغدو فوق أمواجه يجرى

وأما مهيار الديلمى فيقول إنها تعودت الطوى لا تأكل إلا الماء ، فإذا كان الفرس لا يطيق غير فارس واحد فإن الفرسان عليها مزدحمون ، تشق الماء كالحية فى التراب ، ولها زبد من سرعتها ، فإذا رحلت بالشراع مرّت كأنها من جوافل النعام ، فهو يوازن بينها وبين الناقة فيجد أن العليق عليها حرام ، ويسمى الزبد الذى ترسله السفينة لغاماً كزبد الناقة سواء بسواء . وفى هذا برهان على أن صور

---

(١) أهرت الشدق : واسع الفم .

البادية لم تبرح مخيلتهم ، فلم يبتعدوا عن النياق والنعام والعليق واللغام وهم ينظرون إلى السفن تعوم على الماء .

والسريّ الرفاء لا يختلف عن الشعراء فى وصفها حين يقول :

كل زنجية كأن سواد الليـــ ـل أهدى لها سواد الإهاب
تسحب الذيل فى المسير فتختا ل وطوراً تمر مرّ السحاب
وتشق العباب كالحية السو داء أبقت فى الرمل إثر انسياب

فرسمها زنجية لأنها مطلية بالقار تسحب الذيل فى المسير وتشق العباب كالحية السوداء تركت أثراً بعد انسيابها .

الأزهار والثمار

أحب العربى الجاهلى الغيث فجعله نعمة ورحمة يستقى ويشرب ويسقى راحلته ويقتات ، ولكن العباسى زاد على هذا كله أنه يرى فوق النعمة ترفاً ونعيما ، فيرى المياه والأنهار والبحيرات والبرك والسفن ، ويجد الزهر والنَّوْر فى البساتين والرياض فينعم كذلك بمنظرها ومرآها ، ويأكل من الثمر ما لذ وطاب . وما أشرف القرن الرابع والخامس حتى انصرف الشعراء إلى الرياض والزهر والثمر ، فاستبدوا بالوصف وحلقوا فيه فأتوا بالعجب العجاب ، وخصوا كل لون من الأزهار والثمار بأوصاف مستقلة هدفوا إليها وسعوا فى تصويرها ، حتى لقد قال بعض النقاد إن الطبيعة ظفرت فى شعر الحمدانيين بنصر عظيم ونهضة طيبة . وقد تنبه المعاصرون فى ذلك الزمان إلى هذا ، فجمعوا ألوان هذه الأوصاف وقاموا للموازنة بينها على أنها فن مستقل ، فكتب السرى الرفاء فى ذلك وهو من رجال القرن الرابع ، عاش فى العراق والشام ونظم فى هذه الألوان وشارك فيها مشاركة شاعر وصاف ، لذلك عدنا إلى كتابه « المحب والمحبوب والمشموم والمشروب » ، ونظرنا فى مخطوطته لنجمع أشتات هذه الصور ونعرض نماذج منها لعلنا ندلل للقارىء

على روعة ما وصل إليه الشعر فى هذا العصر ، كما فعل المؤلفون بعده ، فجمعوا من فصوله وجعلوها فى كتبهم ، كنهاية الأرب للنويرى وغيره ؛ فقد نقلوا عنه بعض موضوعاته وفيها كل عجيب : نفح الأنوار وسقوط الطلّ عليها ، واهتزاز الأوراق والأغصان ، والشقائق ، والبنفسج ، والأقحوان ، والنرجس ، والسوسن والياسمين ، والخيرى ، والبهار ، والجلنار ، والسفرجل ، والزعفران . ولا سبيل إلى سردها كلها فى كتاب موجز كهذا الذى نكتب فيه ، وفيها شعر جميل وثروة ضخمة .

ولعل أحسن الشعراء فى هذا الباب هو الصنوبرى ، فقد دعاه مؤرخو الأدب بشاعر الرياض ، وسموا الفن الذى حلق فيه بالروضيات ، بل إن ديوانه بستان تتمايل أغصانه بالثمر ، وتهتز نباتاته بالنور والزهر ، رسم الفصول وما تنبت من زهر وثمر فلم تفته واحدة منها ، ولم يقصر شعره على فصل واحد ، ولكنه فضل الربيع :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة ... فالأرض مستوقد والجو تنور
وإن يكن فى الخريف المحل مخترقاً ... فالأرض محصورة والجو مأسور
وإن يكن فى السماء الغيم متصلا ... فالأرض عريانة والجو مقرور
ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا ... جاء الربيع أتاك النور والنور
فالأرض ياقوتة والجـو لؤلؤة ... والنبت فيروزج والمـاء بلور
لا تعدم الأرض كأساً من سحائبه ... فالنبت ضربان سكران ومخمور
فيه جنى الورد منضود موردة ... به المجالس والمنثور منثورُ
هذا البنفسج هذا الياسمين وذ النـ ... ـسرين ذا سوسن بالحسن مشهور

فالصيف ذو فاكهة وريحان وفى الخريف تتصل الغيوم وتتعرى الأرض ويسود القر ، وأما الربيع ففيه النَّوْر والنور ، والأرض خضراء والجو صاف والماء بلور والنبات سكران أو مخمور ، والورد منضود والمنثور منتثر .

ووصف كشاجم الشقائق حمراء مصقولة كأنها وجنات أربع قد جُمعت ،

ولكل واحدة فى صحنها خال . ورسم المهلبىُّ البنفسج كأنها أوائل النار فى أطراف كبريت . وشبه الشعراء الورد بالخدود ، وزهر الأقحوان يتضاحك فوق ساق دقيقة كأنه سكران يتثنى ؛ والنرجس والخيرى والسوسن والنارنج والآذريون تلتقى فى صور جميلة كما تلتقى الحسان فى عرس كل تحمل أجمل زينتها وأطرف أصباغها . وقد قال أحد الشعراء فى البنفسج :

وكأن البنفسج الغض يحكى   أثر اللطم فى خدود الغيد

وقال أبو فراس يصف الجلنار :

وجلنـــار   مشرق   على أعالى شجره
كأن   فى   رءوســـه   أحمـــره   وأصفـــره
قراضـــة   من   ذهب   فى   خرق   معصفـــره

أما الثمار كالتفاح والسفرجل فقد تلاعب بهما الشعراء فشبهوهما برسل القبل حين تعض بالأسنان ، ورسموهما بما فى الوجه من صفرة أوحمرة لأنهم كانوا يتهادون بهما . ووصفوا العنب والموز ، ويقول ابن الرومى فى الموز :

يكاد من موقعـــه المحبوب   يدفعـــه البلعُ إلى القلوب

الرياض

ونظر الشعراء إلى الطبيعة يرقص فيها الزهر ويلتمع النور ويتمايل الثمر ، ويختال الشجر ، فوجدوا كأن الدنيا فى عرس أو كأنها فى عيد ، فأثنى ابن الرومى على آلاء الرحمن لهذا المنظر الجميل ، ووجد أن الروض قد اكتسى بأفواف الحبر فكأن الطبيعة أنثى تبرجت للذكر بعد حياء وخفر . ونظر إلى الرياض فرأى فيها مصابيح توقد وتلتمع ، والزهر يتضاحك ويرسل أريجه ، وكأن البساتين تختال كما تفعل الفتاة فى خيلائها تشكر المولى على ما أنعم وتثنى على السماء فى أرج وعطر ، والنسيم يسرى كما تسرى الأرواح فى الأجساد

فتحمل شكرها إلى بارئها ، والحمائم تتداعى كالبواكى أو القيان الشوادى أو كما تغرد الطير فى الأيك . ويلح الشاعر على معنى الضحك فى النور ويرسمه كما نرسم الأناسى فى عين اليقظى وجيد الناعسة ، والنبت قد اكتسى بالأصباغ فكأنه يلبس الطيالس أو يحكى الطواويس ، بل هو يجد حين المطر مأتماً فى السماء يبكى والأرض تحته كالعروس فرحة مستبشرة .

والبحترى حسب أن الربيع يتكلم من حسنه ، فهو يختال ضاحكاً مسروراً لما يرى من زهر ونور ، فالورد ينبه النوّم النعس ، والبرد يفتق الزهر فكأنه يبث حديثاً كان مكتوماً ، والشجر اكتسى بلباس كالوشى منمنم ، ورق النسيم حتّى لكأنه أنفاس الأحبة ، فتغنت الأوتار وانتشى الندمان كأنهم البدور يستحثون الأنجم . والشاعر يصف البرق يلمع ، والمطر يمتد إلى الأرض كحبال فتتضاحك الأودية وتنتثر اليواقيت وقد جلل النّور ظهر الأرض ، وتقلبت الألوان على الطبيعة فغرد الطير وهبت الريح تختال كالعذارى .

وأبو تمام يشبه زهر الربى بالقمر ، ويحسب أن كل زاهرة تترقرق بالندى فكأنها عين تحدق فى الناس فيقول :

من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنهـا عين إليك تحدر
تبدو ويحجبهـا الجميم كأنها ... عذراء تبدو تارة وتخفـر
حتّى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين فى خلع الربيع تبختر
مصفـرة محمرة فكأنهـا ... عصبٌ[1] تيمن فى الوغى وتمضّر
من فاقع غضّ النبات كأنه ... درّ يشقق قبل ثم يزعفر

وهذه ألوان محببة مزج الشاعر بينها فجاءت لوحة مترعة بالفن صادقة الرسم كأنها صورة الدنيا تنطق بالجمال .

وأما رقص الأشجار وتثنى الأغصان فالبحترى يشبهها بالعذارى هبت

(١) العصب : برود مخططة يمانية ومضرية .

الريح بها فأرقصت أفنانها ، وتقاربت للتعانق كالأحبة تنعطف وتصغى للأسرار أو تستمع إلى الغزل . وابن المعتز يزيد على هذا أن الأغصان فى رقص وشرب وسماع . والصنوبرى يفتن فى رسم الشجر فيقول فى السرو بحلب :

سروها الداني كما تد نو فتاة من فتاها

ثم يصفه كما نصف الغوانى تتلاعب ويداعب بعضها بعضاً فيقول :

والسرْو تحسبه العيون غوانيا قد شمرت عن سوقها أثوابها
وكأن إحداهن من نفح الصبا خودٌ تلاعب موهنـــاً أترابها
لو كنت أملك للرياض صيانة يوماً لمـــا وطىء اللئام ترابها

فأعار الشجر صورة الآدميين وخصّ التشبيه بأحسن بنى آدم صورة وحسناً وهى المرأة ! ودعا إلى تكريم الشجر وحبه والحفاظ عليه كما تدعو حكومات العالم اليوم إلى المحافظة عليه ورعايته .

الليل والأفلاك

وذهب الشعراء فى وصف الليل مذاهب القدماء ، فقال بشار : ما لليل لا يبرح كأنه موصول بليل آخر فما يتزحزح ، ورأى أن الكرى هو الذى أطال ليله ، أو كأنه التغميض نبا عن عينيه كأن جفونهما قصار لا تتقارب . وابن الرومى شبه الليل بالدهر لطوله قد تناهى فليس ثمة مزيد كأن نجومه نجوم الشيب لا تزول ولكنها تزيد يوماً بعد يوم ، وأبو العلاء المعرى شبه الليل بعروس من الزنج .

وتطرقوا إلى النجوم والأفلاك كذلك ، فرأى ابن المعتز أن كل نجم غائر ، وأن هلال السماء كطوق عروس فوق غلائل سود بل إنه كمنجل قد صيغ من فضة يحصد النرجس من زهر الدجى ، وأن الثريا كالعنقود فى الغرب ، بل إنها فى أواخر الليل كتفتح الزهر أو كلجام مفضض ، أوأنها قدم تبدت من ثياب حداد . والبحترى يرى سهيلا كشخص ظمآن جانح يكرع . ووصف ابن

الرومى الشمس كالورس المزعزع حين تقضى نحبها . وابن المعتز يصف الصبح قائلا :

والصبح يتلو المشترى فكأنه عريان يمشى فى الدجى بسراج

وفى كثير من هذه الصور إبداع جديد وتشبيهات حية تستعير صورها من الناس والمخلوقات أو الأشياء فى الطبيعة .

الأطلال

وسار الشعراء العباسيون كذلك فى وصف الأطلال مسير القدماء ، فوقف بشار بها وبكى أبو تمام ديار الأحبة ، ودعبل وقف بمنازل الرسول ، والبحترى رثى المنازل كذلك وبكى على الدمن المواثل كالنجوم فإذا عفت فهو يتساءل بأى نجم يهتدى ؟ ! وهذه الصور لا جديد فيها ولكننا أوردناها لننتهى إلى تعلق القوم بأوصاف القدماء فى كثير من أغراض الشعر .

القصور والأبنية

رأينا أن الشعراء العباسيين قلدوا فى وصف الأطلال ووقفوا عند معانى الأقدمين ، ولكنهم على ذلك وصفوا القصور والأبنية الجديدة ، فرسم البحترى قصراً بناه المتوكل على الله بن المعتصم ، وشبه علوه بجبل رضوى أو شواهق خيبر ، وقال إن الناس ينظرون إليه كما ينظرون إلى نجم المشترى . وقد عانقت شرفات القصر قطع السحاب ، فكأنه يصف ناطحات السحاب لعصرنا الحاضر.

ووصف البحترى كذلك قصراً بناه المعتز بالله فصوّر الحمام وقد ذعر من منظره حين ترنم فوقه ، وصوّر حيطان الزجاج لجحاً تموج على السواحل ، وكأن تفويف الرخام حبك الغمام رصفت فى ألوان مختلفة ، وكأن سقوفه المذهبة تنير السبل فى الظلام . وأما بساتين القصر فكأنها كسيت بالبرود الموشاة ، والأشجار

فيها مثل العذارى الغيد تمايلن عشية حاليات وعاطلات .

وتناول فى وصفه قصوراً أخرى نقصر عن تعدادها وتلخيص موضوعاتها ، فكأنه مهندس معاصر يرسم الأبنية ويصف صورها وأوصافها فى شعر غنائى يتخيل فيه الغمام والبرود والعذارى تختلط فى لوحة واحدة ؛ وتحس فى وصفه لقصور المتوكلية كأنه يرسم المدن الحديثة وقد لمعت قصورها كالكواكب تضىء للسارى السبيل ، وهذا ما يشاهده المسافرون اليوم حين يركبون متن الجو ويحلقون فوق العواصم الكبرى خلال الليل . ولن ننسى وصفه إيوان كسرى فقد أبدع فيه وأجاد :

وأما الصنوبرى فقد صور مدينة حلب وحولها القرى كأنها بدر الدجى والقرى أنجم زهر ، ثم رسم الجامع والمئذنة والفوارة والقبة والسارية ، والشوارع والدور ، وفعل مثل ذلك حين زار دمشق ، فوصف شامخ البناء وخاصة الجامع الأموى .

الأطعمة والمآكل

وليس عجيباً أن يعرض الشعراء لوصف المآكل والأطعمة بعد أن عرضوا للسماء والماء والزهر والثمر ، والنبت والشجر ، وصيد البر والبحر ، فكأنهم يريدون أن يصفوا كلّ ما وقع لهم .

وصف ابن الرومى اللوزينج ، وهى حلواء تشبه القطائف وتؤدم بدهن اللوز ، فقال :

مستكثف الخبز ولكنه   أرق جلداً من نسيم الصبا
كأنما قدت جلابيبه   من أعين القطر إذا قببا
يخال من رقة خرشائه   شارك فى الأجنحة الجندبا (١)

(١) الخرشاء : قشرة البيضة ، وكل شىء أجوف فيه انتفاخ — الجندب : الجراد .

لو أنه صوّر من خبزه ثغراً لكان الواضح الأشنبا(١)
من كل بيضاء يحب الفتى أن يجعل الكف له مركبا
ذيق له اللوز فلا مرة مرّت على الذائق إلا أبى
وانتقد السكر نقاده وشاوروا فى نقده المذهبا

فهو كثير الخبز ولكنه رقيق فى جلده أرق من النسيم وقشره ناعم كأنه أجنحة الجرادة ، مزج باللوز والسكر وأصبح يحبه كل فتى ويتمناه كل إنسان . فابن الرومى وصفه فى دقائقه وتفصيلاته كما وصف الخبز فى مراحله بيد الخباز يدحو الرقاقة ، فتتحول من كرة إلى قوراء كالقمر ويرسم صورة الحجر يرمى فى الماء ، وكما وصف الزلابية فى رقة القشر والتجويف كالقصب ، وجعل الزيت المغلى كالكيمياء ، يحيل العجين من لجين إلى شبابيك من الذهب .

وكشاجم رسم القطائف كذلك ، ولا عجب فقد كان طباخاً لسيف الدولة قال :

كأنه إذا تبدى من كثب كوائر النحل بياضا وثقب
قد مجّ دهن اللوز مما قد شرب وابتل مما عام فيه ورسب

ثم وصف البطيخ فى لغة سهلة محببة تعوّدنا ها فى رسمه للمأكولات خلال قصائده :

يا جانى البطيخ من غرسه جنيت منه ثمر الخلد
لم يأتنا حتى أتتنا له روائح أغنت عن الند
كأنما تكشف عنها المدى عن زعفران زيف بالشهد
بظاهر أخشن من قنفذ وباطن ألين من زبد
كأنما فى جوفه قهوة ينقع فيها عنبر هندى

فهو ثمرة الخلد ورائحته تغنى عن الند ، ولونه كالزعفران مزج بالشهد ،

(١) الشنب : ماء ورقة و برد ، وعذوبة فى الأسنان .

ظاهره كالقنفذ فى خشونته وباطنه كالزبد فى لينه .

وقد صور الشعراء كذلك الدجاج المطبوخ والفراخ ، ووصف ابن العميد طعامه وصفاً مسهباً فى قصيدة تسيل بالكوامخ والأطايب من المآ كل ، ووصف السرى الرفاء الحمل المشوى وصفاً جميلا ، قد شق حشاه ، وصور الصابى طباخه حين يطبخ له العجل والخروف .

مرافق البيت

ووصفوا ما كان فى البيوت من مرآة وخاتم وسبحة وثوب ودواة وأقلام ودفاتر ، ومن شمع ونحل ومروحة ودنانير وفرو ، وجعلوا لها مكاناً فى دواوينهم ، ونثرها المؤلفون فى كتب الأدب ، كما فى كتاب التشبيهات لابن أبى عون ، والتحف والهدايا للخالديين ، ونهاية الأرب للنويرى ، وقد جمع هؤلاء الأدباء كل ما يخطر فى البال من هذه الأوصاف مما تهاداه الناس أو استحسنوه ، ولا سبيل إلى حصر هذه الألوان فهى كل حياتهم الاجتماعية وحضارتهم وتمدنهم ، ولسنا نؤلف فى هذا هنا ، ولكننا سنكتفى بعرض نماذج من وصفهم لها .

أهدى المريمى إلى أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون مرآة ووصفها مع الهدية قال

مكشفة ستر العمى عن ذوى العمى ... ومنطقة فى وصفها ألسن الخرس
بحيرة نور موجهـا متدافـع ... وليس لها غير التألق من حس
لهـا نور إفرند ورونق جوهر ... يكدره أدنى التنفس واللمس

فهى تكشف الصور وتُنطق الأوصاف ، تموج بالنور وتتألق بالحس كنور السيف ووشيه ورونق الجوهر ، تتكدر باللمس أو بالتنفس . وشبيه بهذه الصورة ما قاله أبو بكر الخالدىّ فى المرآة حين تتنفس أمامها الحسناء فتشبه الغيم الأبيض :

وتنقبت بخفيف غيم أبيض   هى فيه بين تخفر وتبرج
كتنفس الحسناء فى المرآة إذ   كملت محاسنها ولم تتزوج

ووصف ابن الرومى الدواة سوداء محلاة بالذهب حين أهداها إلى أحد الرؤساء :

قد بعثنـــا إليك أم المنايا   والعطايا زنجية الأحساب
قد تحلت بصفرة وكذا الزنـ   ـج تحلى شكلا بصفر الثياب
فى حشاها بغير حرب حراب   هن أمضى من مرهفات الحراب

فهى زنجية وحليها الأصفر كثياب الزنوج ، والأقلام فيها كالحراب بل أمضى منها .

ووصف نطاحة الكاتب دفتره فشبهه بالروض أو بالبرد فى وشيه ، فيه السطور منظومة مشكولة منقوطة كأنه بستان خط غير أن الثمار اتخذت رسم الحروف فيه . وابن المعتز صور القلم كالفلك يجرى بما شاء ، يلثم القرطاس كما يقبل البساطَ الشكور ، وهو يجلب العطايا ، أو المنايا ، صغير لكنه كبير الأفعال .

وأبو بكر الخالدى وصف مروحته فجعلها من النخل والخيزران لبست سواداً كحداد العشاق ، ترد القيظ وتخفى السر وتصلح لضرب الدلال ويومى بها فى عروض الكلام . ووصف الصنوبرى الشمعة فرأى أنها تحول الليل نهاراً وأنها شجر يحمل ناراً ، وهى عذراء تفتض من أعلاها. والحسين بن الضحاك رسمها صفراء كذلك ولكنها مثل الأفاعى إذا ألهبت ، وشعلتها زرقاء كأحداق الروم :

ولم أر من قبلها أنفساً   تذيب الجسوم بأحراقهـــا
وإن مرضت لم يكن برؤها   بشىء سوى ضرب أعناقها

وابن الرومى جعلها هيفاء من ندماء الملوك ، صفراء كالعاشق المدنف ،

فهى تكيد الظلام كما كادها ، فتفنى وتفنيه .

والشاعر الصنوبرى وصف نعلا يستهديها فرسم أجزاءها وألوانها وصورها كالطائر ترفرف ، فكأن خرزها بالخيط يشبه عيون النمل ، وكأن شكلها يشبه أذن بقر الوحش فهى حيناً كالحية وحينا كالعقرب إذ تقبل أو تدبر .

وتعرض أبو تمام للثياب فوصف كسوة الصيف كقشر البيض أو السراب الرقراق فى القفر ، يرجف بالريح كأنه كبد المحب أو قلب الخائف ، يلصق بالمتن والأضلاع ويطرد الهجير . وكذلك وصفها التنوخى فجعلها تخفق كقلب الجبان، أو السراب والماء والسناء والبهاء حين تلتمع جميعاً .

* * *

وهكذا رأينا هؤلاء الشعراء خلال خمسة قرون يقف بعضهم بالأطلال يبكى الديار والمنازل ، وبعضهم يقف بالقصور فيصف الرياح والوحش والجآذر كأنه فى فلاة ، ومنهم من يركب المطى إلى الممدوح ، ويصطنع كثير منهم ألفاظاً بدوية وصوراً جاهلية . ولكنهم إلى جانب ذلك جددوا فى كثير من صور الوصف فى الطبيعة فرسموا ما لم يرسم الأقدمون وصوروا ما لم يقع فى الجاهلية وصدر الإسلام ، فكانت ثورة سايرت الزمن فى كثير من نواحى حياتهم الاجتماعية ، فخلفوا صوراً تمثل عيشهم وحضارتهم ، والأدوات التى كانت بين أيديهم والمشاهدات التى تراقصت أمام أعينهم .

الفصل الثامن

العصر العباسى

وصف الخمر والسقاة

انطلق كثير من الشعراء فى هذا العصر إلى الشراب فى الأديرة والحانات والقصور ، فى مجالس عامة أو خاصة ، ووصفوا الخمر والسقاة والكؤوس ، وأصوات المغنين والمغنيات ، وهم يمتعون النظر بالراقصات من قينات أو جوار ، حتى لم يخل ديوان شاعر فى هذه الأزمنة من وصفها سواء شربها أم لم يشربها ، فقد أصبح وصفها فنًّا من الفنون لا يجوز للشاعر إغفاله أو القعود عن التسابق فيه . وكأن القول فى الخمر لم يكن يضير صاحبه أو يكلفه عنتاً ، فقد نقلت كتب الأدب أن الوزراء والأمراء وبعض الخلفاء أقاموا مجالس لشربها أو وصف ما يدور فيها ، ولذلك كثر الشعر فى الخمر والشراب وتقلبت عليها الأسماء وتنوعت ، فهى قهوة ومدامة وسبيئة ومشعشعة وصرف وعقار ومصفق وكميت وصهباء وسلافة وعانية و . . إلى ما لا نستطيع حصره . وكثرت كذلك آلات الشراب وتنوعت أسماؤها حتى خصت بها كتب فى شربها وفى النديم كما فعل كشاجم وابن المعتز والسرى الرفاء ؛ والشابشتى فى كتابه الديارات رسم الشاربين والعابثين فى هذه الأماكن .

ولعلنا نستنتج من شعرهم أنهم يحبونها عتيقة أزلية ، فيقول أبو نواس : تفانى جسمها والروح باق ، ويقول ابن المعتز إن الناس أسكنوها الدنان من عهد عاد

وأن الدهر أكل ما تجسم منها وأبقى لبانها المكنون ، ويصورون فضّ ختامها كأنه اللهب أو توقد المريخ فى الظلماء ، قال الصنوبرى فى ذلك :

وأمطر الكأس ماء من أبارقه فأنبت الدر فى أرض من الذهب
وسبح القومُ لما أن رأوا عجباً نوراً من الماء فى نار من اللهب

ووصف والبة بن الحباب إبريقها فقال :

إبريقنا مصلٍّ يضحك فى صلاته
يكب ثم يُقعى كالظبي فى فلاته
يمجّ كل شيء يمرّ فى لهاته

فلم يتورع عن إدخال الصلاة وألفاظها فى وصف إبريقه ، ورسمه كالظبى يكب ويقعى. ووصف الشاعر البسامى إبريقه ضاحكاً باكياً كإنسان حزين فرح ملثم بالقز أو متشح به ، وصوّر الشرب حولها فقال :

ترى أباريقهم مفدّمة يعلها الفتية المغاوير
كالطير حامت على شرائعها فابتل من وردها المناقير

وهى صورة حلوة تجعل الشاربين من الخمر كالطير تحوم حول الورد فتبل مناقيرها . وتعرض الشعراء للون الخمر فجعلها ابن المعتز كالذهب :

وخمارة من بنات المجوس ترى الزق فى بيتها شائلا
وزنّا لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا

والخمارة فى العصر العباسى تكون رومية ومجوسية وفارسية ، وتكلف مالا طائلا كما رأينا فى العصر الجاهلى سواء بسواء . وحيناً ترى لون الخمر أصفر زعفرانياً إذا تأملتها حسبتها فى ثوب كافور ، وحسبت الطل بينها كدمع تحدر من أجفان مهجور كما قال ابن المعتز .

وأبو نواس يراها صفراء كذلك لا تنزل الأحزان ساحتها، لو مست حجراً لأصابه سرور فكيف إذا شربها الإنسان؟ ! وأما رائحتها فهى كالعنبر أو

المسحوق الهندى من المسك قال فيها البحترى :

ولها نسيم كالرياض تنفست   فى أوجه الأرواح والأنداء
وفواقع مثل الدموع ترددت   فى صحن خد الكاعب الحسناء

ومسلم بن الوليد يصفها صاخبة كعين الديك لا تقبل القذى ، ويمزجها ابن المعتز كالقدماء بماء السحاب فيرى فى وجهها نسيج الدروع :

قهوة زوجت بمــاء سحــاب   فكسا وجهها نقاب حباب
مثل نسج الدروع أو مثل ميا   ت تدانت به سطور الكتاب
وتراها فى كأسها مثل شمس   طلعت فى ملاءة من سراب
فإذا صادفت فؤاداً خلياً   لم تدعه فرداً بلا أحباب

إنها خمر ابن المعتز قد زوجت بماء السحاب فاكتست من الحباب بنقاب وأصبحت مثل ميات فى كتاب ، فهى شمس فى الكأس طلعت فى ملاءة من سراب. والشاعر يجد الماء كالفضة لها حلق بيض تحل وتعقد .

وشبهها البحترى فى رقتها بلفظ الصب يشكو حرارة الوجد . وكشاجم يراها تحوّل الحليمَ سفيهاً .

لستُ أدرى لرقة وصفــاء   هى فى كأسهــا أم الكأس فيها ؟ !

فهو يصف الكأس فى صفاء ورقة يحبهما الشعراء كالصنوبرى وابن المعتز ويقول فيها البحترى :

لبست زرقة الزجاج فجاءت   ذهباً يستنير فى لازورد

وكلهم فى تشبيهها بالشمس أو بالنور والذهب أو اللازورد ، يستعيرون من الطبيعة والأفلاك ويجعلون ألوانها صافية مشرقة . وأبو نواس يخترع لها أوصافاً عجيبة لشدة صحبته لها وعكوفه عليها ، فيجعلها كمصباح المساء .

وابن الرومى يصف الشارب فى لطف ورقة وبلاغة فيقول :

أبصرته والكأس بين فم   منــه وبين أنامل خمس

فكأنه والكأس فى فمـه قمر يقبـل عارض الشمس

وهذه الصورة أعجبت القدماء ووقفت فى صفحات كتبهم تعبر عن البلاغة المثلى والفصاحة العليا . وقد كلف بها الشعراء لأنها تزيل الهم وتشفى الداء ، وابن المعتز شرب بالكبير و بالصغير من كؤوسها لا يحفل بأحداث الدهور ويرى أن خيل الملاهى يجب أن تركض به وأن يطير بأجنحة السرور ، فإذا ما استقرت فى قلب فتى نسى لوعة الكدر فيقول :

خليلىّ اتركا قول النصيح وقوما وامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت بالندى أنفاس ريح
وحان ركوع إبريق لكأس ونادى الديك : حى على الصبوح
وحنّ الناى من طرب وطيب إلى ناى يكلمه فصيح
هل الدنيـا سوى هذا وهذا وساق لا يفارقنا مليح

فهو حين يجتمع له الخمر يرى أن يجتمع الناى المطرب والساقى المليح ! فالدنيا فى خير وسرور ، وليست مليحة إلا بهذا الشرب وهذا الطرب .

ووصف الشعراء كذلك ما تبعث الخمرة فى العين والخد من حمرة قانية ، وعينوا أوقات شربها حين تتسابق السحب والأمطار والغيوم فى سماء الطبيعة ، وتنعقد ألوان قوس قزح فى الأفق ، فالشمس مريضة وكأن الحجب مدّت عليها ثياباً ، والطير مشغولة تتطارح صنوف الغناء . وكثير منهم يستحبّ أن يشربها والثلج يتساقط فتشيب الأرض وينتشر العبير ، كما فعل أبو فراس الحمدانى وكشاجم .

وقد قال الصنوبرى يصف الطبيعة وهو يشرب :

الجو بين مضمخ ومضرج والروض بين مزخرف ومدبج
والثلج يهطل كالنثار فقم بنـا نلهو بربة كرمة لم تمزج

وأحب شربها آخرون بقرب النار فرأى فى ذلك اجتماع نار الراح ونار الخد ونار

الحشا فى الصب. والصنوبرى يصيح بغلامه أن يجلب الكانون وأن يوقد النار ، وكذلك فعل كشاجم . وشربها بعضهم على الرياحين فى شباب النهار واستمع إلى غناء الطير والنسيم يهب والشمس كدينار مجلو . وشربها غيره فى الليل والديك لم ينتبه كأنه سكران يغط فى نومه ؛ والليل كشعر الحسناء والخمر كخديها والشارب من ذلك فى ليلين : شعر الحسناء والدجى ، وفى صبحين : كأسها ووجهها .

وهكذا نرى أن الشعراء اختلفوا فى وقت شربها ، ولم يختلفوا فى أثرها وفى فائدتها ، واتفقوا على أن يكون خلال الشرب عيد الطبيعة ، يمتزج الغناء بالرقص . والجو والشمس والسحاب والمطر كأنها تشترك فى جلاء العيد وفى زينة المجلس !

السقاة ومجالس الشرب

وأما الساقى فيجب أن يكون عند أبى نواس مستعيراً خلق جارية ، فالدر مضحكه والقوس حاجبه والسهم عيناه والأشفار أرماح ، وفى رأى غيره يكون أحور قد تخضبت يداه من الكأس وماس بأعطافه كالخيزران، وعند ذاك يسقى بعينيه ويديه . وابن المعتز يشرب من كف شادن يشكو لحظه السقام ، فكأن السلاف من ماء خده وكأن العنقود يقطف من شعره الجعد ؛ والبحترى يعتصر الخمر كذلك من خد ساقيه الشادن . وابن المعتز يصف السقاة وصفاً طريفاً جميلا حين يقول :

وكأن السقاة بين الندامى ألفات من السطور قيام

وأما الصنوبرى فيريد ساقيه لطيف المنطق ثقيل المؤزر مرتج الكفل غنج العين ، من نسل الدهاقين فى الفرس ، فله عز السلاطين وللشاعر حين ذاك ذل المساكين ! فهو يتحكم فى الشاعر كأنه يسحره أو يرقيه .

فالساقى عندهم محبوب معشوق له جمال وفتنة وسحر يتغزلون به ويجدون

عنده لذتهم وهناءتهم . وفى القرن الثالث استحب كثير من الشعراء أن يكون ساقيه ملتحياً بعقرب صدغه . ولن نعرض لأوصاف الغلمان والسقاة فهى كثيرة تجدها فى كتب الأدب ، ذكرنا منها فى كتاب الغزل ما سمحت به الصفحات هناك ، وصورنا ما كان الغزاون يستحبون من هؤلاء الغلمان .

ويسعى الشعراء إلى أن يكون جلاسهم وندمانهم فى طيب الخلق والخلق ولا تطيب الراح عندهم إلا بطيب العصابة كلها لئلا يحفظوا على السكران زلته ، وهم يحبون أن يجتمع الشرب والطرب فتعمل المزاهر والنايات والعيدان وتجول القينات وتصول ، كما قال أحدهم فى وصف ذلك :

ورنت على النايات أوتار قينة تشوّق فتياناً إلى فتيات !

ويجب أن تكون القينة مشرقة الوجه معشوقة الألحاظ والغنج ، تعزف على الآلات وتطرب الأسماع ، فتدغدغ العود وتعرك أذنه . وقد وصف الشعراء فى مجالس الشراب المغنين والمغنيات ، فأبدع ابن الرومى فى وصف ذلك وخاصة فيما كان لوصف وحيد المغنية ، إذ رسم صوتها وهدوءها فقال :

فتراه يموت طوراً ويحيا مستلذ بسيطه والنشيـــد

فيه وشى وفيه حلى من النغـ ـم مصوغ يختال فيه القصيد

واستطرد الشعراء من ذلك إلى وصف آلات الطرب كالناى والعود ، كما فعل الوأواء الدمشقى وكشاجم والصنوبرى والسرى الرفاء .

وإذا كانت الخمر معتقة والأبريق جميلا ، والوقت مواتياً والساقى فاتناً ، وسار الطرب وتحركت الموسيقا فأن دبيب الخمر فى العظام يسرى كأنه النعاس قد أخذ بالمفاصل ، فهو يشرب الخمر ولكنها تشرب عقله خبلا ، ويسلم روحه للراح ويميل رأسه على الكأس ويتلعثم اللسان وتقول الجوارى إنه رجل من الأحرار صرعته الشفاه بالكأس والطاس . ويرى السكران فى الناس سقاة وفى الأشياء كئوساً كما قال أبو نواس ، ومع ذلك يستزيدون منها ، ويستشفون

بها ، ويجدون بها الدواء لكل داء ؛ ويقول الحسين بن الضحاك :

أعود إليها وموتى بهـــا كما تجرح الحرب أبطالها

وهكذا رأينا أن العباسيين شربوا كما شرب الجاهليون وكما شرب من قبلهم من أمم خلال القرون ، حتى قيل إن إبليس عصر الخمر لقابيل وأولاده ! ونقل كذلك أن آدم أول من غرس الكرم ، ونسجت كتب الأدب حول ذلك أسطورة تقول إن الخمر ولدت معها الخيلاء والزهو والمرح والرقص والعربدة ثم الانعقاص ، وذلك منذ الأبد حتى اليوم ، والشعراء رافقوا الأسطورة فكانوا ضحايا اللهب وشهود المعركة ؛ كما كان اليونان قبلهم والفرس ، ولكنهم لم يصنعوا للخمر آلهة كما فعل أولئك ، وإنما اكتفوا بصحبتها وحبها على الزمان ، فرسموها كما رسموا الحبيب والمعشوق ، وخلقوا فيها صوراً خالدة تفوق ما كان للشعر الغربيّ فى رسمها ووصفها .

الفصل التاسع

العصر العباسى

وصف المعارك والحروب

أبو تمام — البحترى — المتنبي — أبو فراس — الشريف الرضىّ

قامت الحروب فى عهد بنى أمية ووصفها الشعراء فكانوا إلى الفخر بالنصر أقرب من وصف المعركة نفسها ، وتناولوا إلى ذلك بالهجاء خصومهم . وثارت حروب الخوارج فرسمها الشعراء كذلك وعرضوا للفروسية والبسالة والفتك والتفانى فجعلوا الثورة دينية وجعلوا المثل العليا رائدها . ونهض الشيعة فى وصف نضالهم بالدمع والحزن وكان ذلك دينيا أيضاً . وابن قيس الرقيات وصف قتال الزبيريين وشارك كعب الأشقرى فى الفتوح وحمل قسما من القتال فشهد حروب الأزارقة وصوّرها فأبدع فيها ، ولكن هذا الشعر كله كان شبيهاً بحماسة الجاهلية ممزوجاً بفكرة الدين والعقيدة والدفاع عن المبدأ .

ولما انهزم بنو أمية أمام جيوش الدولة العباسية هزّت الانتصارات الجديدة شعراء العصر فوصفوا النصر والهزيمة وأكثروا من القول فيها ، وأكثر الذين فخروا بذلك هو ابن المعتز فقد أشاد بالحرب ورسمها وتهكم بالعلويين .

وقامت كذلك حروب داخلية فى العراق بين قواد الترك ، وخرج كثير من الأمراء على الحكم فنشبت الحروب بين بغداد وبينهم ، واستعرت ثورات القرامطة والزنج ، وشبّت نيران العداوة بين الشيعة والسنة . ونشأ حول ذلك كلّه

شعر كثير رسم الخيل والسلاح وخراب المدن ؛ حتى إن ديوان ابن نباتة السعدى غصّ بكثير من صور الحروب .

ووقعت بين العرب والروم حروب عرض لها أبو تمام والمتنبي وأبو فراس الحمدانى وكثير من شعراء سيف الدولة ، فوصفوا ما قام عند الثغور أو ما وراء الثغور والتخوم حتى خرشنة أو على مقربة من القسطنطينية . وكان من هذا كله صفحات وافرة فى وصف الحرب ، لو جمعت لكانت ملحمة كبيرة تفوق ما كان للأمم القديمة فى وصف حروبها كاليونان والفرس والهند .

وقد وصف بشار بن برد معركة أثار غبارها وسيوفها حتى خيل إليه أنها نجوم تسّاقط فى الليل . وأبو تمام على رأس الشعراء الذين وصفوا حروب الروم والعرب ، فاشترك فيها بعاطفته وتشفى من العدو وفرح لنكبته ، ورسم دياره وقد أصبحت طعمة للنيران يتراقص اللّهب فى أرجائها ، فيغنى عن نور الشمس فى سمائها ، ووصف الفرسان قتلى وجرحى والنساء سبايا للجيش المظفر :

لم تشرق الشمس منهم يوم ذاك على   باكٍ بأهل ولم تغرب على عــزبِ

والبحترى شارك فى ذلك فوصف الدروع فى الحرب ولكنه لم يخرج على أوصاف الجاهليين ؛ ورسم الأسنة والرماح تسيل فى البيداء مسيل السراب أو كأنها خيال كواكب فى الماء ، وأبدع فى تصوير المعركة كما رآها منحوتة فى إيوان كسرى ، فأرانا الفارس يشيح فيهوى برمحه ، أو يليح خصمه بترسه ، وعرض المنايا مواثلَ فى الحرب تكشر عن أنيابها لاقتناص الفوارس ، وأنو شروان يسوق الكتائب تحت اللواء .

والمتنبي وصف معارك العرب والروم فرسم العدو يسبح فى نجيع من الدم ، وكأنّ السحائب تمطر عليه الحديد ، والمنازل تضطرم فيها النيران ، والقنا تقرع القنا ، وموج المنايا حول الفرسان متلاطم ، ثم يصوّر القتلى من الروم مخاطباً سيف الدولة فى معركة الأحيدب :

نثرتهمُ فـوق « الأُحَيْدِب » كلّه كما نُثِرتْ فوق العروس الدراهمُ (١)
تدوس بك الخيل الوكورَ على الذرى وقد كثُرتْ حول الوكور المطاعم (٢)
تظن فراخ الفتخ أنــك زرتهـــا بأماتها وهى العتــاق الصلادم (٣)
إذا زلقت مشيتهـــا ببطـــونها كما تتمشى فى الصعيد الأراقم (٤)

وقد انتثر القتلى فى كل زاوية كما تنثر الدراهم حول العروس ، وتوزعت جثثهم فى كل مكان فتجمعت النسور حولها تأكل وتنعم ، والخيول تبلغ بالعرب أعلى الذرى كأنها الحيات تزحف ببطونها فوق الصخور . ورسم الدروع تكسو الفارس والخيل ، فقال إنهم يجرون الحديد فكأن جيادهم لا تظهر قوائمها فى المعركة لكثرة الحديد ، ومع ذلك قتلوا وهلكوا . وأبرع صورة فى بطولة القائد حين وقف يستعرض الأعداء جرحى منهزمين ، ووجهه ضاحك باسم بالنصر ، وهو أقرب ما يكون من مواقف الخطر كأنه فى جفن الموت ، والردى نائم غافل عنه . وهذه الصورة تقف للشعر العالمى وتصلح للقواد جميعاً من عرب وغربيين حين ينتصرون كسيف الدولة .

وأبو فراس الحمدانى وصف هذه الحروب ضد الروم ، وصوّر انكسار العدو وهرب الأبطال والملوك والقواد ووقوع نساء الروم سبايا فى أيدى العرب ، وصوّر المعاقل تخر سجداً أمام العرب وشبّه الأسرى والقيود تضجّ فى أيديهم وأرجلهم بغناء الغوانى من غير مزاهر ، ووصف النصر فقال :

وأوطأ حصنىْ « ورتنيس » خيـــوله وقبلهمـــا لم يقـــرع النجم حافر

فجعل حوافر الخيل تقرع النجوم حين بلغت الذرى فى الجبال لتصل

---

(١) الأحيدب : جبل الحدث .
(٢) الوكور : ج وكر الطائر وهو موضع مبيته .
(٣) الفتخ : ج فتخاء من العقبان وهى اللينة الجناح — العتاق : كرام الخيل — الصلادم : الشداد .
(٤) الصعيد : وجه الأرض — الأراقم ج أرقم وهو الحية فيها سواد وبياض .

إلى حصنىْ ورتنيس عند الروم ؛ وهذه صورة أخرى تقف لصورة المتنبى فى زحف العرب إلى الأعالى والذرى بخيولهم . وأما الصور التى رسمها الشاعران لنصر سيف الدولة فى غزواته ضد القبائل فكثيرة لا تحصى .

والشريف الرضى أكثر من وصف الحروب والخيل والدروع السابغة ، وخصّ شعره بالماضى التاريخى كما فعل الصنوبرى وكشاجم ، فرسم حروب العلويين وامتلأت نفسه بالحزن وخاصة فى مقتل الحسين ، وصوّر الغبار والرماح والانتقام والتشفى .

ولعلنا لم نختر للمعارك شعراء كثيرين لأننا رأينا أن هؤلاء آثروا المجالس الناعمة والزهر والروض والماء والغناء والشراب ، وابتعدوا عن غبار المعركة وضجيج السلاح وقانى الدماء ، أو لأن الشعراء عاشوا أكثر الوقت فى معزل عن السياسة والقيادة فى الحرب والسلم .

الفصل العاشر

الوصف في الأندلس

ابن شهيد — ابن هانئ — ابن زيدون — ابن حمديس — ابن خفاجة

انتقل العرب إلى الأندلس فوجدوا فى القطر الجديد طبيعة مشرقة جميلة ، شبه القطر الذى قدموا منه فى اعتدال الهواء وطيب الإقليم ، فقد قال القدماء ن الأندلس كالشام فى هوائها واليمن فى اعتدالها ، فعاشوا فيه كما عاشوا فى لادهم الأولى ؛ وكان يذكرهم بأوطانهم فيتملكهم الشوق والحنين ، ولذلك كثرت الشكوى أول الأمر عند شعرائهم ، فوصفوا الفراق والجوى ، وظلوا كذلك تى كان القرن الخامس الهجرى فضعف هذا الشعور بعض الشىء ، وأصبح شعراء يتكلمون باسم البيئة والجو ، فنظروا نظرة جديدة مختلفة إلى طبيعة البلاد لأندلسية ؛ ولذلك كانوا فئتين فئة تعيش مع المشرقيين فى المعانى والألفاظ ، ئة تشق طريقها إلى معان طريفة فيها كثير من التجديد وسنعرض هنا أهم علامها .

وقد عاشت الفئة الأولى مع المشرقيين ، فجعلت فى شعرها غريب اللفظ ديم الصور وجمعت من أشعار الجاهليين كامرئ القيس وزهير وعنترة معانيها وصافها ؛ وأحسن من يمثل هذه الفئة هو ابن شهيد ، فقد وصف البادية لأطلال والخمر والنجوم والليل ، ثم رسم الورد كالخدود حين تخجل والشقيق يكو صفحاته من لطم اللاّطم ، فاتخذ صوراً من العباسيين فيها البرق يضحك ثريا تتمايل أيديها بخواتم مذهّبة ، والشمس تنظر بعين رمداء ليس فيها قذى .

ولعله أتقن فنون البلاغة فسار فى شعابها ومسالكها كما قال فيه الفتح بن خاقان ، وبذلك أعجب المشرقيين إذ قلّدهم وجاراهم .

وابن هانئ وجد كذلك مثله العليا عند الجاهليين والأمويين وبعض المحدثين كأبى تمام وأبى نواس والمتنبى ، ولذلك قرنوه بمتنبى المشرق ، وكثير من شعره يقع فى البادية والصحراء ، ويصوّر الظعن والأطلال والآل ، وبعضه يلمّ بالبرق وغناء الحمائم والمدامة ، على أساليب المشرقيين ، فيسقى السلافة معتقة كلون الجلنار ، ويركض نجم الليل كأنّ الليل يطالبه بثأر ، ويرسم الورد والنرجس فى صفرة وحمرة كما يرسمها العباسيون ، وتجد عنده رسوماً للسها وبنات نعش .

هذه هى الصورة التى عاشت قبل القرن الخامس الهجرىّ ، فلما كان هذا القرن اكتملت الحضارة فى الأندلس وانقطعت صلة الشعب بالبداوة وبيئتها ، فعاشوا فى القصور والحدائق والبساتين قرب الأنهار والبرك والأحواض يتراقص الزهر والنَّوْر لأعينهم وتداعب الموسيقا آذانهم ، فكأنهم فى قطر غربىّ بعيد كل البعد عن المشرق فى طريقة العيش وفى أسلوب النظر إلى الطبيعة .

وقد كانت تهبّ عليهم نسمات العصر الحمدانى وما كان لشعرائه من تجديد ، فقاموا لوصف بلادهم ومدنهم فتعصبوا لها وغدا كلّ من الشعراء يتغنى ببلده أو واديه ، فابن زيدون راح يشيد بقرطبة ، وابن سفر المرينى بأشبيلية ، وترنم غيرهما ببلنسية ، حتى كان فى وصف المدن والربوع كتاب ضخم يغصّ بالشعر ، وكتاب نفح الطيب للمقرى خير شاهد على هذا .

ونستطيع أن نقرأ هذا الشعر الذى يمثل وصف الأنهار والبساتين والغدران والمدن ، وأن نرجع إلى هذه القصائد التى وصفوا بها البحر ، فقد فتن الأندلسيون به وهاموا بحبّه وركبوه ، وخلّفوا فيه شعراً كثيراً يرسم الأساطيل والسفن ، فاخترعوا معانى كثيرة فى هذه الأوصاف ، ولكنك تقع بينها على بعض معانى العباسيين مما لم يكن منه بد .

وابن زيدون وصف الطبيعة كذلك فأعارها حبّه لولاّدة وحسّه فى القرب منها أو الشوق إليها ، فيخاطب الريح والسحب والزهر والمواطن والمرابع ، ورجاها أن تنقل إلى حسنائه آية حبّه ورسالة هواه ، وهو فى هذه الأوصاف شبيه بالرومانتيكيين الذين يرون فى الطبيعة أصدقاء يشفقون على بلواهم ، ويجدون فى النهر والجبل والبحيرة والشجر شواهد على حبهم تعطف على وجدهم وتبكى لأساهم ، فكلّ ما فى الكون يحسّ بحبهم ويشهد على آلامهم وأحزانهم ، فكأن الدنيا قد لبست لهم ثياب الحداد واكتستْ بالحزن . وهو على هذه الأوصاف أخذ من بعض معانى المشرقيين وتعلّق بصور البحترى فلقب ببحترى المغرب .

وابن حمديس ولد فى صقلية ، وهى فاتنة ، وانتقل إلى الأندلس وأفريقية فاتصل بالقفار والصحارى فوقع حيناً على معانى القدماء من وصف الأطلال والديار وآثار الأحبة ، وسخر منها حيناً آخر كما فعل أبو نواس ، وتطرق إلى أوصاف البرق والصيد والفرس ، فلاذ بأسباب المشرقيين وتعلق بنجد وغيرها ، وهتف كابن الدمينة ووصف الخمر كأبى نواس ، فسكر للغمام والطير والشروق والغروب والنسيم الرقيق والسحب المظلمة ورسم الغصن بالتثنى سكران بالندى والشمس تجرى كالذهب ، وذكر غرة الصبح وطلل الحمى . ولكنه على هذا التقليد كان يرمى إلى معان طريفة يحاول أن يشق طريقه بها إلى الجديد فيقول :

وراءك يا بحر لى جنة ... لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحاً ... تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى ... إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقاً ... إلى أن أعانق فيها ذُكاء

وهى أبيات جميلة تبين عن وصف جديد للطبيعة ومعان مستحدثة ، فهو يتمنى أن يُعطى المنى ليركب الهلال كزورق فيبلغ الربع .

وابن خفاجة ، عاش للفنّ ، وابتعد عن السياسة ، وكان سعيداً بمقامه

ودياره يفضل الأندلس على الدنيا كلها ، ويرى فيها جنة الخلد ، ولو خيّر بلداً لاختارها ، فأقبل على الرياض واتصل بالبساتين وتعلق بمباهج الطبيعة فرآها كعروس ، ووصفها فى صور جميلة وتعابير رقيقة تدل على تجديد فى اللفظ والمعنى قال :

فى أبطح رضعتْ ثغور أقاحه　　أخلاف كل غمامة مدرار
نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا　　درر الندى ودراهم النوّار

فالأقاحى لها ثغور ترضع أخلاف الغمام ، ويد الصبا نثرت الندى كالدرر والنوّار كالدراهم ، وهو يساجل الغمام ويطارح الحمام ويناجى الديار ، وقد عاثت فيها الظبي ومحا البلى محاسنها ، وصوّر الخمر وشربها من كف أحوى أحور ، فشرب معه الثرى وتغنى الهزار وصفّق الماء ، وقد فعل شاعرنا كما فعل العباسيّون فى اختيار الغيم والثلج والمطر لأوقات شربه ، فوصف الشمس سقيمة صفراء واستمع إلى لحون الطرب والمغنين وغناء الطير وحفيف الشجر وتمايل النور ، ونظر إلى الأغصان تمايل من طرب ، وقد افترّ ثغر الهلال عن سرور .

وصورة الفرس عند ابن خفاجة تستعير من الروض كذلك فتجعل خده من الجلنار وأذنه من ورق الآس ، ورسم الليل كزنجىّ فى سواده والنجم كدينار ، وصورة الذئب فى ديوانه تستعير من النجوم والكواكب قسماتها وألوانها ، وكذلك وصف الطير والكلب ، فهو بستانى يعيش بين الشجر والزهر فيغمس ريشته فى ألوانها ثم يشبه كل ما يرى بها .

ووصف ابن خفاجة ما وصفه العباسيون من أشخاص وأشياء ، وزاد فرسم صورة للأحدب تختلف عن صورة ابن الرومى . ووصف الأسد والنارنج والنار ، والأرنب والشراب ، واستعمل كزملائه صور المشرقيين حيناً وابتكر أحياناً ، فهو يصف النهر ويبدع فى تجديده حين يقول :

لله نهر سال فى بطحاء　　أشهى وروداً من لمى الحسناء

متعطف مثـــل السوار كأنه　　والزهر يكنفه مجـــرّ سماء
قد رق حتى ظن قرصاً مفرغاً　　من فضة فى بـــردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها　　هدب يحفّ بمقلـــة زرقاء

فالماء أشهى من لمى الحسناء ، وتعطّف النهر كالسوار ، ورقته كقرص من فضة فى بردة خضراء ، والغصون تحفّ به كما تحيط الهدب بالمقلة الزرقاء ، وهذه فى جملتها أوصاف طرقها العباسيون ، ولكن تجديده كان فى عرض الصور بألفاظ جديدة واستعارات تصويرية فيها فتنة وسحر تشبه الأرض التى عاش عليها ، فهو جنّان قضى حياته فى جنة الأندلس وخرج فى أوصافها بصور جنائنية لا تجدها عند غيره .

وهكذا رأينا أن الشعراء فى الأندلس أفاقوا فى القرن الخامس الهجرى على صيحة التجديد فى التعبير والتصوير ، ولكن الزمن لم يتح للعرب أن يسيروا طويلا فى الطريق الجديدة فقد أخرجهم الأسبانيون من هذا الفردوس ، وقد كان أمل القومية العربية وأمل الوصف فى الأدب العربىّ ، فخبا النور الذى سطع خلال هذه القرون ، وجاءت عصور الانحطاط ، وبسط العثمانيون ظلّهم الثقيل على الأدب العربىّ فنام نومة طويلة ، ولم توقظه إلا نفحة من ديار الغرْب هزّت كيانه هزا فى الشام ومصر ، فتحرك لإحياء القديم أولا ثم نشط للإبداع والاختراع .

الفصل الحادى عشر

الوصف فى العصر الحديث

شوقى — صبرى — مطران — حافظ — العقاد — على محمود طه — على الجارم — أبو شبكة — الأخطل الصغير — خليل مردم بك

ظلت مصر تستمع إلى شعراء الشام والعراق والأندلس فتطرب ولكنها لا تشارك فى قول الشعر ، حتى كان القرن الرابع الهجرى فانبرى شعراؤها يقولون فى الوصف خلال ثلاثة قرون كما قال العباسيون ويرسمون الطبيعة فيعيدون إلى الأذهان صور أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن زيدون وابن المعتز . وهكذا لمعت فى مصر أسماء ابن النبيه وابن قلاقس وابن الساعاتى وابن سناء الملك والقاضى الفاضل وابن مطروح ، وظهرت فى الأدب العربىّ أوصاف النيل والرياض حوله ، والسماء والأفلاك ، تستعير من أوصاف المحبوب فتنته وسحره على أساليب العباسيين .

فلما كان العصر الحديث هبت على النيل ريح الغرب وحملت كثيراً من المصريين إلى أوربة ، فسرى فى النفوس شعور جديد يدفع إلى حب الأدب العربى وإحيائه بل وتجديده ، لذلك حاول كثير من الشعراء فى مصر أن يقلدوا الغرب حيناً فى أسلوبه وأغراضه ، وقام أمامهم فريق كبير يحب أن يقلد العباسيين فى اللفظ والمعنى ، وكان من وراء هذين الفريقين فئة من الشعراء شقت طريقها إلى شىء من الجديد الطريف ، وتنسم اللبنانيون أريج هذا الشعر فحملوه إلى لبنان وإلى المهجر، فكانت محاولات فى الوصف

والتصوير ، تجارى العصر الحاضر واختراعاته فى كثير من عناوين القصائد ، ولكنها لا تخرج عن المعانى المطروقة إلا فى الألفاظ المجنحة والصور اللفظية الجديدة .

وقد حاول أحمد شوقى فى مصر أن يخص جانباً كبيراً من شعره بالأوصاف كالنخيل والبحر المتوسط والشراع ، فوقع على معانى القدماء ، ثم أراد أن يكتب فى الحيوان فجعل قصصه تقليداً للشاعر الفرنسى لافونتين ، لا تصويراً كما فعل الصنوبرى والسرىّ وكشاجم .

ولقد سعى إلى تصوير الخمر والرقص والربيع والمساجد والكنائس والقصور بعد أن رأى وسمع وسافر إلى باريس ومدريد ، ووقف فى غاب بولونيا وعلى قبر نابليون ومسجد قرطبة ، وضواحى جنيف وأطراف البوسفور ، وراح يرسم ما شاهد ، ولكنه لم يفعل شيئاً جديداً ، فلم يبتعد عن التقليد ولم يتخلص من معانى القدماء وتشبيهاتهم وأوصافهم ؛ بل أضاف إليها عواطفه الشخصية وأحاسيس نفسه .

فلما تعرض للطيارين الفرنسيين ذكر سليمان وبساط الريح حين وصف الطائرة :

صهوة العزّ اعتلوا تحسبهم جمع أمـــلاك على الخيل تسامى
رفعوا أولهـا فـانـــدفعت هل رأيت الطير قد زفّ وحاما (١)
شال بالأذناب كل ورمى بجناحيــه كما رعتَ النعاما
ذهبت تسمو فكانت أعقباً فنســوراً فصقــوراً فحماماً
تنبرى فى زرقة الأفق كما سبّح الحوت بدأماء وعـــاما (٢)

وهى صورة جاهلية فيها الطير والنعام والنسور والصقور والحمام والحوت ،

---

(١) زف الطائر : رمى بنفسه أو بسط جناحيه .
(٢) الدأماء : البحر .

قد اجتمعت لتعير الشاعر من رسومها ألواناً وأشكالا لهذه الطائرة ، ولولا كلمة اولب وزرقة السماء لحسبنا أنها تجرى بين الحيوان على الأرض . والواقع أن الطائرة تشبه الطير أكثر ما تشبه وقد اخترعت تشبهاً بالطير ، ولكن الشاعر يستطيع أن يتخيل فى رسمها أبعد من هذه الصور الحسيّة المادية الصرف فى القرن العشرين . ولعل عذره فى ذلك أن أحداً من الشعراء لم يخض معمعان هذا الوصف فكان الميدان بكراً . وشأنه فى وصف الطائرة كشأنه فى وصف السفن والسيارات وغيرها .

وإسماعيل صبرى وصف النيل والبرق والسحاب والدواة والشيب ، والثعلب والغراب ، ولكنه جعلها فى رسوم العباسيين ، تأخذ من الحيوان والجنان والأشجار ؛ فقد قال فى البرق إنّ سناه عيون مراض أو مصابيح قبل الانطفاء أو سيوف تميل بأيدى الكماة أو مواطئ الخيل على الصخور يتطاير منها اللظى .

وخليل مطران ، رسم قلعة بعلبك مسقط رأسه ، فعرض للنحت والصور والجنان المعلقات فى أسلوب بسيط سهل ، طريف . ووصف الأهرام فتعلّق بالعبرة أكثر من الصورة ، وامتلأ ديوانه بأوصاف كثيرة فى الورد والبنفسج والزنبقة ، فحلق فى معان كثيرة لم نرها لغيره :

وأفانين من شقيق ومن فلّ ومن مضعف ومن ريحانِ
كل ضرب شبيه سرب جميع مفرد عن لداته فى مكانِ
طال فيها تأملى وكأنى كنت منها فى روض عين حسانِ

وهكذا دفعه خياله لأن يشبه كل زهرة بحسناء فكأنه فى جمع منهنّ يتوخى شبيهاً لمعشوقته ، فإذا هى كما يقول فى قصيدته تشبه الزنبق فى طهرها ونقائها .

ووصف الشاعر سرباً من الغيد يصنعنَ حلوى العيد فيخرجن من كتل العجين بدائع بأيديهن ، وأناملهن مخضوبة بالدم لشدة حمرتهن ، وزنودهن كالعاج معرّقة بالزمرد ! .

وأتيح للشاعر أن يصور مشاهد من أرض الكنانة جميلة كمجنى القطن وصبيات المزارع يخطرن فيها متغنيات هازجات ؛ وصور مشاهد تاريخية بارعة فى قصيدته الكبرى « نيرون » فرسم حريق روما وحال الشعب الرومانى . ووصف المدن السورية واللبنانية فى ديوانه مثل زحلة والمعلقة وطرابلس الشام وحاب وبكفيا والخنشارة، وصور المشاهد الجميلة فيها . فهو بحق شاعر الشام ومصر فى ديوانه حين نفهم من ذلك وصف ما فى القطرين الشقيقين من معالم تاريخية ومناظر ساحرة .

ومطران وصف الطائرة مثل شوقى ، ولكنه وصف النياق والجرد العتاق ، وجعلها مزجاة بأجنحة غلاظ تزف زفيفاً ، وحين عرض للطيارين اللذين قتلا عليها قال :

هبط النسر بفـــرخيه ومــــا كان صيادهمـــا غير القضاء

وأما حافظ إبراهيم فقد عرض للوصف فى شعره ، فرسم حوادث الزلزال فى مسّينا ووصف الشعب الإيطالى وما لاقى من عنت وعذاب ، وصور الطبيعة هائجة تغلى حقداً ، والأرض تبغى والبحر يطغى والجبال ترجم وتقذف بشواظ من مارج ودخان، فكأنه يستعير وصف جهنم من القرآن أو يوم القيامة حين تزلزل الأرض زلزالها . وهذا التصوير بديع يقول فيه :

بغت الأرض والجبـــال عليهــــا وطغى البحر أيمــا طغيـــان
تلك تغـــلى حقداً عليهــــا فتنـ شق انشقاقــاً من كثرة الغليان

فقد وصف نكبة الطليان بالزلزال كما وصف مطران نكبة الطليان بحريق رومة وجنون نيرون ، ولكن بأسلوب مختلف أخذ صورة من الشعر القديم ومتانته من روعة اللغة التى نعرفها لحافظ .

ووصف حافظ سفينة فى البحر رحل عليها إلى إيطاليا فصورها تترامى

فى المياه بصدرها لاتبالى بالموج أو بالصخور، تعلو تارة وتهبط أخرى ، وشبهها بالسيل وبجواد يسعى إلى الطعان :

وعليها نفوسنا خائـــرات جازعاتٌ كادت شعاعاً تطير
فى ثنايا الأمواج والزبد المنـ ـدوف لاحت أكفاننا والقبورُ

ثم قال إنّ نفوس الركب جازعة خائرة تطير شعاعاً من الرعب فى قلب الأمواج ، والزبد كالقطن المندوف كأنها أكفان تتهيأ وقبور تفتح ، وهذه معان جميلة تقلّبت على لسان حافظ فى أوصافه ، اعتمد فيها حيناً على القدماء واخترع حيناً بلطف حيلته وجميل عَرْضه . أما الخمر فقد عصرها من خد النجم تارة ومن خدود الملاح أطواراً ، وذكر قدمها قبل نوح ، وتعلّق بمعانى أبى نواس وغيره من العباسيين ، فطلب من غلامه أن يسقيه حتى لا يطيق الكلام إلا بهمس ، وساقيه رشأ لطيف تنطق عيناه بالسحر ، وخمره حفظت فى الصهاريج منذ بابل وأقامت فى جوف الدنان المظلمة ، وهذه كلها معان عتيقة قتلها الشعراء ترديداً .

ووصف عباس محمود العقاد النيل ، والرياض ، والثلج ، والنار ، والبدر ، والشتاء ، والعقاب ، والكروان ، والصحراء ، واتخذ أكثر شعره فى الوصف ، وحاول أن يقلد الغربيين وأن يبتعد عن الشعر المصرىّ المعاصر ، ولكنه وقع كثيراً فى معانى القدماء ، قال يصف السينما :

بربك ماذا فى ستائــرك الطلس أأشباح جن تلك تظهر للإنس؟
إذا لم تكن جنًّا فما لى عهدتها تفر فرار الجن من طلعة الشمس؟

فعاد فى وصف العجائب إلى الجن كما عاد النابغة وغيره إليها حين وصفوا القصور المدهشة والآثار العظيمة ، ورسم الستائر طلساً كذئب النابغة والبحترى والفرزدق ؛ وله فى صوت الكروان وعيشه صور جميلة حية لا تنسى .

وأما على محمود طه فقد وصف سفينة الجندول والحسناء التى لقيها عليها ،

فصوّر عاطفته وحنينه إلى مصر وأهلها كما صوّر شوقى قصور الأندلس والحمراء ، فتحركت الأشواق وسكتت الألوان وخفيت الأشكال فى كثير من صوره . وبعضها يحمل طابع الإبداع والتجديد ، ولو أن العمر امتد بالشاعر لأمد الوصف بكثير من روائعه .

وتعلّق بعض الشعراء فى المهجر ولبنان ومصر بالوصف اللفظى ، كفوزى المعلوف وشفيق المعلوف والقروىّ فراحوا يمنحون الكلمات صوراً مجنحة — إذا صح التعبير — أو يكسون الموصوفات من خيالهم أشكالا تطير بالسامع إلى جوّ طريف وتنقله إلى حيث يريد الشاعر ، وقد رأينا بعض اللحون والأهازيج فى ديوان على الجارم حين يقول :

ومزامير أطلقت من فم السحـ ـر فمادت لها رواسى الجبال
ورنتْ كل سرحة تسرق السّمْـ ـع وتعطو بغصنها الميـال(١)
وأهازيج ردّدتهْـا الأزاهيـ ـر وغنى بهـا نسيم الشمال
ذهل الشعر فاستفـاق فألفى موكباً حفّ بالسنـا والجلال

وهذه صور جميلة ، فالمزامير تغنى وتميد لها الجبال الراسية والشجر يسترق السمع ويتطاول الغصن الميال ، والأغانى تردّدها الأزاهير فتسرى مع النسيم ، وسحر الشعر بجمال الأنغام وذهل برائع الألحان ، ثم استيقظ فراعه موكب السنا والجلال .

وقد سار بعض شعرائنا على هذا النمط يعيرون اللفظ أجنحة من الوصف لعلها تكون لوحات رائعة التصوير والرسم ، تصف النفوس والقلوب والمشاعر ، وترسم الطبيعة . وإليك لوحة رسمها إلياس أبو شبكة للنجوم :

كأنّ النجوم الضئيلة فى الأفـ ـق رشح خمور على خابيهْ
كأنّ النجوم زفير خطايا تصعّده ليلة زانيـهْ

(١) السرحة : الشجرة — تعطو : ترفع رأسها وتتطاول .

وقد شهدنا فيما تقدم وصف شعرائنا للنجوم، ولكننا لم نعهد تشبيهها برشح الخمور على خابية أو بزفير الخطايا من امرأة زانية . وما دمنا فى رسم الطبيعة فلنسمع إلى بشارة الخورى يصف جبل صنين بلبنان :

وأبو الربى صنّين قام كشمعـــة بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى
يتوقّد النجـــم السنىّ برأسهـــا فترى بوادر دمعهـــا المترقرق

وهكذ رسم الثلج فوق صنّين كشمعة تناطح السحاب وفى رأسها نجم سنىّ يتوقد فتسيل الشمعة أسى وتبكى دموعاً . ووصف الشاعر الأخطل خمره فأبدع فيها حين قال :

يا ذابح العنقود خضّب كفّه بدمائـــه بوركت من سفّاح
أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح !
أدب الشراب إذا المدامة عربدت فى كأسها أن لا تكون الصاحى !

وطبعى أن نجد بوناً شاسعاً بين معانى أبى نواس ومعانى الأخطل الصغير فى لبنان ، فقد ضربت الأيام وتقانبت على أدبنا مدارس ومذاهب أفاد منها شعراؤنا المعاصرون ، فجعلوا ذبح العنقود والدماء تسيل منه والسفاح لعاصر الخمر ، أما فراغ الأقداح فتثاؤب وملؤها عربدة ! وهذا جديد فى الوصف ، يدفعنا إلى الأمل بأن أدبنا يشدّ إلى آفاق جدجدة .

وعكف كثير من الشعراء المعاصرين فى مصر والشام على وصف الرقص والمراقص ، فأبدع منهم فيها الشاعر خليل مردم بك حين صور الأجساد متلاصقة حتى ما يخلص الماء من بينها من فرط اعتلاق ، وكأن الفتى يحمل ثديى فتاته لشدة القرب حين الرقص . وعمد هذا الشاعر إلى المآذن والنيران والثلوج والجبال والأنهار فجلا رسومها على شكل جديد فيه حنين وعاطفة ودقة تصوير . وتبعه كثير من الشباب فى محاولاته ، وستؤتى هذه الخطوات أكلها إذا تعهدها النقاد وأخلص لها مؤرخو الأدب ؛ وهم سيضيفونها إلى ثروتنا القديمة

فى الوصف خلال أربعة عشر قرناً من المشرق إلى الغرب ، لأنها ستكوّن متحف الوصف العربى .

وسيكون للوصف حينذاك صورة يحلّق معها الشاعر بالألوان والأصباغ والظلال كما انعكست فى نفسه من حزن أو فرح وحركة أو جمود ، وسيصبح للشعر العربى متحف جميل فيه الحيوان والإنسان والطبيعة الميتة من قرية أو قصر أو كوخ أو بستان أو وجوه الناس ، أو مناظر الأسرة والبيت ومشاهد الأب والأم والأولاد ، وصور البؤس أو الفرح فى المصانع والمعامل والشوارع والبيوت ، فى المدينة والريف ، تنطق كلها بنفسية الشاعر وتعبر عن روحه ، فيتأثر بها القارئ ويذهب مع الشاعر إلى الأفق الذى كان يحلّق فيه ويدرك أهدافه ومراميه ، ويبصر بعينه التى كان يرسم بها ، ويحسّ بروحه التى كان يحلّق معها ، وهذا هو الفن الموفق ، والوصف المجوّد ، والخلود فى الشعر .

فهرس

رقم الإيداع		١٩٨١/١٦٥٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٤١-٣٩-٣	ISBN

١/٨٠/١٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)